شبه رحلة إلى الجزائر

للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج الخزرجي الأنصاري



دراسة وتحقيق

ذ : محمد الراضي كنون الحسني الإدريسي

رقم الإيداع القانوني

ردمك

مطبعة

المؤلف ... محمد الراضي كنون الهاتف ... 0661683399

الموقع الإلكتروني: www.cheikh-skiredj.Com

مقـــــدمـة

بسم الله الرحمان الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

أود في صدر هذه المقدمة أن أتوجه بالشكر الجزيل والثناء الجميل إلى كل من ساعدني على إنجاز هذا التقييد المبارك. المنسوب لعالم فاضل. صاحب فكر ومنهج وصدق وإخلاص. وسلوك قائم على أسس الإسلام و قواعده الصحيحة. ومقومات الشخصية المغربية الفذة. كيف لا وقد أعطى لوطنه أجزل العطاء. وكانت حياته سجلا ناصعا لمرحلة هامة من حياة المغرب العلمية والثقافية.

وبدون إطالة فالعلامة سيدي أحمد سكيرج هو واحد من أبرز الشخصيات التي جمعت بين فضائل العلم والأدب والأخلاق. والتصوف والأصالة والوطنية الصادقة. أضف إلى ذلك اعتزازه العظيم بالعقيدة الإسلامية السمحة. وهي صفة بارزة من خلال مواقفه وقيمه وسلوكه. فقد كان عالما فذا. يجسد شخصية الفقيه المغربي المدافع عن حوزة الدين. المتصدي ببسالة لكل من خولت له نفسه الإساءة لشيء من أركانه أو واجباته ومكوناته. كما كان محبا لوطنه. دائم التغني بخصائصه ومميزاته. وفيا لملكه. صادق الولاء لعرشه. مؤمنا بدوره العظيم في حماية المقدسات الدينية والوطنية.

ترجمة المؤلف

ولادتـه

هو من مواليد مدينة فاس خلال منتصف شهر ربيع الثاني عام 1295 هـ - أبريل 1878 م. وبها نشأ داخل أسرة فاضلة. ذات مآثر جليلة ومزايا جمة. وقد أنجبت هذه الأسرة نخبة من علية العلماء والأدباء والمؤرخين الكبار. إذ يكفينا أن نذكر منهم الأديب الشاعر الكاتب محمد بن الطيب سكيرج. والمؤرخ الفقيه عبد السلام بن أحمد سكيرج. مؤلف كتاب نزهة

الإخوان وسلوة الأحزان. في الأخبار الواردة في بناء تطوان، ومن حكم فيها أو تقرر من الأعيان. والعلامة المهندس الزبير بن عبد الوهاب سكيرج.

نشأته وتحصيله

وبمسقط رأسه المذكور تلقى مختلف مراحل تعليمه. تحت عناية دقيقة من والده الحاج العياشي بن عبد الرحمان سكيرج. الذي أولاه اهتماما خاصا. نظرا لما لاحظه فيه منذ البداية من شفوف ونبل وتطلع إلى المعالي والكمالات. وذكاء وفطنة عجيبة.

وعموما فقد أدرك مراده في الدراسة والتحصيل. وبلغ منيته في التربية والسلوك. فحصل معظم ما كانت تعج به جامعة القرويين من علوم وفنون مختلفة. حيث برع في الفقه والنحو واللغة. والسيرة والحديث والتصوف.والأدب والحساب والشعر.

وقد أسهمت في تكوينه نخبة من خيرة علماء الجامعة المذكورة. كالعلامة سيدي محمد بن محمد بن عبد السلام كنون، وعبد الله البدراوي. وعبد المالك العلوي الضرير. والحبيب الداودي. وابراهيم اليزيدي. وعبد الله بن خضراء وغيرهم.

مؤلفـاته

للعلامة سكيرج مؤلفاته كثيرة. تزيد على مائة وستين تصنيفا. مما يدل على غزارة علمه ورصيده المعرفي الواسع. وتعود كثرة تآليفه إلى حبه الكبير للكتب. وتعلقه بها. وإقباله على مطالعتها. فقد كان يمضي جل أوقاته منشغلا بها. ولوعا بمحتوياتها. يقرأ ويكتب. ويعلق ويشرح ويؤلف.

وللإشارة فقد تعرضنا لذكر عناوين مؤلفاته بتدقيق في كتابنا: رسائل العلامة القاضي أحمد سكيرج. فلينظرها من أراد التوسع في هذا الباب.

وظائفـه

تنقل العلامة سكيرج بين عدة وظائف. نجملها في ما يلي:

ناظر لأحباس فاس الجديد ما بين عامي 1332 هـ - 1336هـ موافق 1914م- 1918م.
قاضي لمدينة وجدة ونواحيها ما بين عامي 1337هـ - 1340هـ موافق 1919م – 1922م.
عضو ثاني بالمحكمة العليا بالأعتاب الشريفة بالرباط ما بين عامي 1340هـ - 1342هـ موافق 1922م – 1924م.
قاضي لمدينة الجديدة ونواحيها ما بين عامي 1342هـ - 1347هـ موافق 1924م-1928م.
قاضي لمدينة سطات ونواحيها ما بين عامي 1347هـ - 1363هـ موافق 1928م-1944م أي إلى حين وفاته رحمه الله.

سلـوكه

كان رحمه الله مضرب المثل بفاس وبغيرها من المدن التي استوطنها. وذلك بجده وتدينه وعلمه. وورعه وشكره وقناعته. فقد كان متواضعا. بعيدا عن الكبر والإدعاء. غير ميال للتفاخر ولا محب للظهور. على درجة عالية من الورع والتقوى والثبات على الحق. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وكثيرا ما كان يغير المنكر بيده. لطيف الروح. عذب الحديث. رائع النكتة. يخفي الألم. ويبدي الإبتسام. لم يقعده مرضه (داء السكري) عن خدمة دينه وجيله وأبناء وطنه.

انخراطه في الطريقة التجانية

أتيح للمؤلف التدرج بين يدي كبار مشايخ عصره. لاسيما بمدينة فاس مسقط رأسه. وناهيك في هذا الشأن بالعلامة سيدي محمد (فتحا) كنون. وأحمد العبدلاوي. وعبد المالك العلوي الضرير. وحميد بناني. وعبد الله البدراوي. وعبد الكريم بنيس. وغيرهم من جلة علماء الطريقة المذكورة.
وعلى هؤلاء تمسك بهذه الطريقة. وانضوى في سلك رجالها الأبرار. ولم يقتصر على مجرد الأخذ والإنضواء فقط. بل عمق معارفه بكثرة المطالعة لكتبها. والإعتكاف على ذكر أورادها الساعات الطوال. كما سعى إلى لقاء العديد من مشاهير رجال هذه الطريقة.

خصوصا منهم العارف بربه سيدي أحمد العبدلاوي. فقد كان يقضي الكثير من وقته في مذاكرته. لا يمل من ذلك ولو جلس إليه النهار بأتمه.

وخلاصة القول فقد انخرط في الطريقة التجانية عام 1316هـ - 1898م. وكان عمره إذذاك لا يتجاوز الإحدى وعشرين خريفا.

اهتمامه العريض بالشعر

يعتبر الشعر واحدا من أهم المجالات التي تجلت فيها شخصية صاحبنا المذكور. فقد قرضه منذ حداثة سنه. وظل على ذلك إلى حين وفاته رحمه الله. حيث ترك ثروة شعرية مهمة. توزعت بين كافة الأغراض السائدة إذ ذاك. من مدح ووصف وغزل ورثاء ومولديات ومساجلات وإخوانيات. وما إلى ذلك من موضوعات مختلفة.

ويتميز شعره بالقوة والجزالة. وحسن الصياغة. ودقة المعاني. مما ينم على اطلاعه الواسع بقواعده وأدواته. ذلك الإطلاع الذي جعله أحد جلة شعراء جيله. فكان محط إعجاب كثير من القراء والدارسين. وذوي الاهتمام بالقريض وشؤونه.

ويمكننا تلخيص ثروته الشعرية فيما يلي:

مدح النبي صلى الله عليه وسلم: 15 ديوانا

مدح شيخه أبي العباس سيدي أحمد التجاني: 3 دواوين

إلى غير ذلك من مئات القصائد المتنوعة الأغراض. لاسيما في المجال التربوي. مع ميادين السلوك والنصح والمواعظ.

تلامذتـه

تخرجت بصاحبنا المذكور طائفة من الفقهاء والأدباء الكبار. ممن استفادوا من خبرته واقتبسوا من أنواره. نذكر منهم السلطان الأسبق المولى عبد الحفيظ العلوي. ومحمد

الحافظ المصري. وأحمد بن الحسين الدويراني. ومحمد امغارة. ومعاوية التميمي التونسي. والشيخ ابراهيم انياس الكولخي. وأخويه محمد الخليفة ومحمد زينب.

وفاتـه ومدفنـه

كان رحمه الله مصابا بداء السكري. يعاني من شديد مضاعفاته. لاسيما في آخر حياته. حيث استفحل عليه المرض. مما اضطره للخضوع لعملية جراحية بإحدى مستشفيات مدينة مراكش. وقد توفي إثر هذه العملية بقليل. وذلك يوم السبت23 شعبان عام 1363هـ-12غشت 1944م.

وشيعت جنازته في اليوم الموالي إلى ضريح القاضي أبي الفضل عياض. فدفن فيه بعد أن عاش ثمانية وستين سنة. كانت كلها رحلة حياة مليئة بالمواقف العلمية الموفقة والتضحيات الجسام.

وقد تألمت لوفاته جل الأوساط العلمية والثقافية. سواء بوطنه المغرب. أو بغيره من الدول المجاورة كالجزائر وتونس ومصر وسنغال والسودان.

دراسة الكتاب

تاريخ الرحلة

انطلقت هذه الرحلة بتاريخ يوم الأحد فاتح ذي القعدة الحرام عام 1359هـ ـ 1 دجنبر 1940م، أي قبل وفاة المؤلف بأربع سنوات لا غير، واستمرت فترة تناهز عشرة أيام، انطلاقا من مدينة سطات إلى الدارالبيضاء، ومنها على متن القطار إلى مدينة الرباط، ثم إلى فاس، ومنها بالقطار أيضا إلى مدينة الجزائر العاصمة، عبر مدن وجدة وتلمسان وسيدي بلعباس

الغاية من الرحلة

تدخل هذه الرحلة في إطار الإجتماعات السنوية التي كانت تعقدها جمعية أوقاف الحرمين الشريفين، والمعروف أن هذه الإجتماعات كانت تتداول بين دول المغرب العربي الثلاث [المغرب والجزائر وتونس] وكان الدور في هذه السنة على الجزائر، وكان هناك حينئذ حدث هام يتعلق بمحاولة توعية الناس بمخاطر الذهاب إلى الحج في تلك السنة، نظرا لنشوب الحرب العالمية الثانية واشتدادها إذ ذاك، بحيث يصعب عن المراكب البحرية التي تقل الحجاج توفير أمنهم وسلامتهم

أعضاء الوفد المغربي المشارك في هذا الملتقى

كان الوفد المغربي حينئذ يتكون من السيد وزير العدل السيد محمد بن العربي العلوي، ورئيس التشريفات المولوية السيد قدور بنغبريط ، والسيد أحمد الهواري، ونخبة آخرى من كبار الإداريين والمترجمين ، بالإضافة للمؤلف الذي كان حينئذ قاضيا لمدينة سطات ونواحيها، كما كان عضوا نشيطا فعالا، من قدامى أعضاء الجمعية المذكورة

الجانب الفقهي في هذه الرحلة

كعادة المؤلف في رحلاته المدونة السابقة لم يغفل في هذه الرحلة عن التعرض لبعض المستجدات الفقهية الشائكة وقتئذ، كمسألة التصوير الفوتوغرافي مثلا، فقد توسع في تحليل هذه المسألة وأعطاها قسطا هاما من اهتمامه في مطلع نص هذه الرحلة، كما تحدث عن زكاة الخرطال، مستحضرا في الوقت ذاته إحدى فتاويه التي كان قد أفتى بها بمدينة وهران خلال أول زيارة له لبلاد الجزائر عام 1329هـ ـ 1911م، أي قبل هذا التاريخ بثلاثين سنة،

الجانب الأدبي في نص هذه الرحلة

كغيرها من نصوص رحلاته السابقة تشتمل هذه الرحلة على جانب مهم من الأشعار والمقطعات الطريفة، ممن ترتاح لها الأفئدة وتميل إليها النفس، أضف إلى ذلك ما تحتويه من متعة حية قلما تجدها في مؤلفات كثيرة آخرى، منها أنه ترك قلمه في هذه الرحلة يرسم ما في نفسه بعيدا عن التصنع، بحيث يُخَيَّلُ لقارئها أنه معه يرى ما يراه ويقف على وقع ذلك في نفسه

وبالرغم من كون هذه الرحلة تدخل في عداد الرحلات الرسمية فقد أطال المؤلف في وصف معالمها وأمتع، وذلك بأسلوب أدبي متين جعل من هذا النص أثرا قيما لا يستهان به

ولعل من أبرز قصائد هذه الرحلة قصيدته الرائية التي مدح بها وزير القلم التونسي السيد حميد الرايس، والتي قال في مطلعها :

عِنْدِي مِنَ الشِّعْرِ رَايَاتٌ فَأُنْشِرُهاَ * وَلَمْ أَزَلْ بِجُيُوشِ الشُّكْرِ أَنْصُرُهاَ

وأيضا قصيدته التي قالها في توديع الجنرال ابن الخوجة، بعد انقضاء أشغال الملتقى، والتي قال في مطلعها :

اسْقِيَانِي وَحْدِي وَلاَ تَشْرَبَـاهَا * مُذْ دَعَانِي الهَـوَى لَهَا فَدَعَـاهَا

ومنها أيضا قصيدته التي قالها في حق صديقه ومعاصره باشا مدينة سلا السيد محمد الصبيحي :

عَلَيَّ مِنْكَ انْبِلاَجُ الفَجْرِ قَدْ بَزَغَـتْ * شُمُوسُهُ فَظَفِـرْتُ بِالمَسَـرَّاتِ

إلى أن يقول فيها :

لِـلَّـهِ دَرُّكَ يَـــا بَـاشَـا سَــلاَ فَـلَـقَدْ * أَصْبَحْتَ فِي النَّاسِ مُجْلِي الْمُدْلَهِمَّاتِ
تُحْيِّي القُلُوب بِمَا تُبْدِيهِ مِـنْ رشـدٍ * حَـتَّـى وُصِـفْـتَ بِـكَـشَّـافِ الـمُـهِـمَّاتِ
وَيَـا صَـبِيحِي صَـبِيحَ الـوَجْهِ أَيْـنَ غَـدَا * يَـزْدَادُ حُسْـناً وَيَرْقَـى فِـي الـمَقَامَاتِ

ولعل من أبرزها قصيدته التي ختم بها نص هذه الرحلة، والتي قالها في مدح جلالة المغفور له السلطان محمد الخامس قدس الله سره، وقد افتتحها بقوله :

بِحُبِّكَ قَدْ أَصْبَحْتُ غَيْرَ مُفَنَّدِ * لِأَنَّـهُ مَـشْـهُورٌ بِـحُـبِّ مُـحَـمَّدِ
وَفِـي آلِـهِ يَـزْدَادُ حُبِّي ومَا أَنَا * بِـحَبْلٍ سِـوَى حُبِّي لَهُمْ بِمُقَيَّدِ

معلومات عن هذه الرحلة

تعتبر هذه الرحلة هي تاسع رحلة للمؤلف لبلاد الجزائر، ومعظم رحلاته لهذا البلد كانت تنصب في الإطار نفسه، وهو حضور الجمع السنوي لجمعية أوقاف الحرمين الشريفين، أضف إلى ذلك حضوره لملتقيين للطرق الصوفية بالبلد ذاته، كان أحدهما باستدعاء من صديقه الشيخ أحمد العليوي، شيخ الطريقة العليوية،

ولا يفوتنا التنبيه على أن هذه الرحلة لم تكن آخر رحلة للعلامة سكيرج للجزائر، بل تلتها رحلة آخرى عام 1363هـ ـ 1944م، وكانت هي الآخرى للغرض نفسه، أي حضور الجمع السنوي لجمعية أوقاف الحرمين الشريفين، غير أن المنية عاجلته بعد إيابه منها بشهر واحد لا غير، ولم تترك له فرصة تدوينها كغيرها من الرحلات السابقة

وعموما فهذه الرحلة التي بين أيدينا هي آخر رحلة مدونة لديه، وقد اتسع له المجال فيها لإجراء صلات مع العديد من الأعلام والوزراء والولاة وذوي النفود، ولا تخلو هذه الصلات من أهمية، مع تبادل وجهات النظر في كثير من الميادين السياسية والعلمية والأدبية وغيرها

موقف العلامة سكيرج من بعض السلفيين بالجزائر

كما كان للمؤلف أصدقاء كثيرون بالجزائر كان له أيضا بعض المناوئين الأشداء، لعل من أبرزهم المدعو عبد الحميد بن باديس ، وقد تصدى المؤلف للرد عليه وتفنيد كثير من ادعاءاته وأقاويله، وذلك عن طريق كتابه المعنون بـ الإيمان الصحيح، في الرد على مؤلف الجواب الصريح، بيد أن المؤلف كان غالبا ما يميل للسلم والوسطية ونبد العنف، ويشمئز من شتم العلماء واستنقاصهم، وهو الشيء الذي كان ينحى إليه ابن باديس وتلامذته،

وكان المؤلف يحبذ في هذا وذاك التحلي بالآداب العلمية المطلوبة، غير أن هذا لا يمنعه من إبراز أخطاء خصومه، وإظهار الجوانب العقائدية التي لا تتفق مع الاتجاه الآخر الذي يقول به ويعتقده، وذلك بلين قولي، ومنطلق عقلي، وحجة نقلية تساعد على الوصول إلى الأهداف. زيادة على الالتماس من الله أن يهدي الضالين ويرجعهم إلى طريق الصواب.

ولا يفوتنا التنبيه على أن عبد الحميد بن باديس كان قد توفي في نفس هذه السنة 1359هـ، وعلى وجه التحديد في شهر ربيع الأول منها، أي قبل انعقاد هذا الملتقى بما يقارب ثمانية أشهر،

وقد وجد وزير العدل المغربي محمد بن العربي العلوي الفرصة مواتية إذ ذاك لإبلاغ تعازيه في وفاة ابن باديس، وذلك لبعض تلامذة هذا الأخير، الذين قاموا بزيارة له بمحل إقامته بالعاصمة [الجزائر] وكان ذلك بطبيعة الحال تحت سرية تامة بعيدة عن أعين سلطات الإحتلال الفرنسي

ولاننسى في هذا الإطار أن وزير العدل المغربي المذكور كان هو الآخر ممن يشاطر المدعو ابن باديس نفس الفكر والمنهجية والإعتقاد، بل كانا معا في خندق واحد ضد رجالات الطرق الصوفية وروادها ومؤيديها

ولم يكن هذا الإجراء ليرضي المؤلف العلامة سيدي أحمد سكيرج، بل كان شديد المعارضة له، وقد عبر عن رأيه بصراحة حوله، لما في ذلك من نزول ومخاطرة رخيصة، الشيء الذي كاد أن يؤدي إلى توتر علاقاته بالوزير المذكور لولا تدخل بعض الأطراف المغربية الآخرى كالسيد قدور بن غبريط وغيره

من مصادفات هذه الرحلة

لعل من أبرز مصادفات هذه الرحلة اصطحاب المؤلف العلامة سكيرج فيها لوزير العدل المغربي محمد بن العربي العلوي، مع العلم أن أحدهما لم يكن يشاطر الأخر نفس الإعتقاد والفكر والتوجه، بل كانت رؤية كل منهما تختلف عن الآخر بكثير،

ولا يخفى على أحد أن العلاقة بين الرجلين كانت تمتد إلى ما يزيد عن ثلاثين سنة قبل تاريخ هذه الرحلة، وبالضبط خلال الفترة التي قضاها العلامة سكيرج على رأس نظارة الأوقاف بفاس العليا، حيث كان الوزير المذكور حينها عدلا من عِدَادِ العدول الذين يزاولون العمل بهذه النظارة

ويذكر عنه أنه تمسك بالطريقة التجانية وقتئذ على يد العلامة السيد الفاطمي الشرادي، لكنهما انسلخا معا عن هذه الطريقة الشريفة عقب الضجة التي أقامها بعض علماء القرويين حول بعض مؤلفات العلامة العارف بربه سيدي محمد بن عبد الواحد النظيفي عام 1343هـ ـ 1925م،

ثم عَمَدَ [محمد بن العربي العلوي] عقب ذلك إلى محاربة هذه الطريقة والإنكار على أهلها ومريديها، وبالغ في ذلك أيما مبالغة، لكنه كان يصطدم دائما بمعارضة قوية من طرف أعلام الطريقة المذكورة، وفي مقدمتهم مؤلف هذه الرحلة العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج، الذي كان يفوقه علما وفقها وحديثا وأدبا وشعرا وتصوفا وغيره،

ثم جاءت هذه الرحلة لتجمع بين الرجلين من جديد، لكن في ظروف غير الظروف السابقة، وقد حاول العلامة سكيرج بحنكته الدبلوماسية المعهودة أن يقزم من بؤرة الخلاف بينه وبين صديقه القديم السيد الوزير المذكور، فنجح في ذلك إلى حد بعيد، حيث مرت فعاليات هذه الرحلة في جو من المودة والإخاء والمسرة

شكل النسخة المخطوطة

لا يختلف شكل هذه النسخة المخطوطة عن شكل نسخ مؤلفات العلامة سيدي أحمد سكيرج الآخرى، غير أنه قسمها لقسمين اثنين، فسامر بالقسم الأول منها ضمن إحدى مسامراته التي تم نقلها على أمواج راديو المغرب إذ ذاك، ثم سامر بقسمها الثاني بعد ذلك بأشهر،

وعموما فنص هذه الرحلة مكتوب بخطه المغربي الجميل المرونق، وذلك على ورق من الحجم المتوسط، ويقع هذا النص بقسميه الأول والثاني على 55 صفحة، تحتوي كل صفحة منها على ما معدله 24 سطرا

القسم الثاني من شبه رحلة الى الجزائر

بسم الله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى كل من والاه والحمد لله
والشكر والتكبير والبيعة المبينة لمولانا امير المومنين زاد الله في معناه

ايها السادة قد تعين علي الوفاء بما وعدت به المستمعين للقسم الاول من
شبه رحلة الى الجزائر فهذا هو القسم الثاني منه مع اختصار القول في جمعية
اوقاف الحرمين الشريفين المنعقدة هناك هذه السنة ولا شك ان الوعد دين
والوفاء به مندوب او مفروض عين وفضيل

ما كلف نفسا فوق طاقتها ... ولا تجود يد الا بما تجد
فلا تعد عدة الا وفيت بها ... واحذر خلاف مقال للذي تعد

فنقول لما وصلنا للجزائر ليلا بتنا بمحل نزولنا بالاوتيل المسمى بالبيتي وهو
اعظم نزل بالعاصمة المذكورة واصبح في وجهنا يوم الثلاثاء
تجيئت اعضاء هذه الجمعية من كل ناحية تتوارد على المحل المعد للاجتماع
وسعادة رئيس الجمعية المحترم الوزير الفقيه السيد قدور بن غبريط يقابل
كل عضو بما هو معهود به من المجاملة الودية حتى يتخيل لكل واحد منهم انه
المختص عنده بالوداد الخالص من شوائب الكدورة وقد احتشد الجمع الذي
يزيد عددهم على الخمسين عضوا

لو ذكرنا اسماءهم لطال الكلام ... ولكل جلالة واحترام
لا يرى من شكرهم بشيء ... فلنا تينا بما اقتضاه المقام

وقد اخبر الاعضاء الحاضرين باستيفاء وضوعهم في اليوم الذي بعد هذا اليوم
المعد للاستراحة من عناء السفر وزيارتهم في عشيته لسعادة الوالي العام
ال ابي يال وعند ... العضو الاكرم شيخ الاعراب المحترم السيد
ابن قانة ان يكون جميع الاعضاء في ضيافته مدة اقامتهم بالجزائر واكثر
على رئيس الجمعية في ذلك جسامة الرئيس على ذلك الا ان بعض الاعضاء
الساكنين بالجزائر كم تسمى انفسهم في عدم التشرف بزيارة محلاتهم ولسر

الصفحة الأولى من القسم الثاني من هذه الرحلة،

وهي بخط المؤلف رحمه الله ورضي عنه

القسم الأول

من المسامرة المعنونة بشبه رحلة إلى الجزائر

بسم الله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله، وعلى آله وصحبه وكل من والاه، والنصر والتمكين لمولانا أمير المؤمنين، ذي الشرف الباذخ، والمجد الشامخ، وارث سر النبوة، سيدنا ومولانا محمد بن مولانا يوسف أيده الله ودام علاه.

أما بعد : أيها السادة المستمعون، قد حبب إلي أن أحدثكم عن شبه رحلة إلى الجزائر للحضور بها لعقد جلسة جمعية أوقاف الحرمين الشريفين[1] التي قد أسست من السنة السابعة عشر فرنجية، وعينت عضوا عاملا بها من تلك السنة بظهير شريف يوسفي منيف، وكل عام تنعقد بإحدى الإيالات الثلاثة الجزائر وتونس والمغرب.

وقد ورد علي كتاب منيف من الصدر الأعظم حفظه الله بتاريخ خامس وعشرين شوال من عامنا هذا عام تسعة وخمسين وثلاثمائة وألف، عن الأمر الشريف بالتوجه للجزائر يوم فاتح دجنبر، حيث نجد يوم ثانيه بها رئيس الجمعية، وزير التشريفات الفقيه

---

[1] ـ جمعية أوقاف الحرمين الشريفين. أحدثت إبان السنوات الأولى لعهد السلطان المولى يوسف. وكان الذي تولى رئاستها آنذاك هو الأستاذ قدور بنغبريط. ولهذه الجمعية مندوبون بدول مختلفة. لا سيما منها دول المغرب العربي. التي كانت خاضعة إذ ذاك تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي. ويعود أول اجتماع لأعضاء هذه الجمعية إلى تاريخ 20 غشت 1917م بمدينة الرباط.

السيد عبد القادر ابن غبريط[1] في انتظارنا، فبادرت لامتثال الأمر الشريف بالسفر من مدينة سطات التي أنا مقيم بها هذه مدة أحد عشر عاما، فوصلت لمدينة الدار البيضاء صباح يوم الجمعة تاسع وعاشر الشهر المؤرخ به للتعجيل باستعمال التسريح القانوني[2]، الذي لا بد منه لمريدي السفر خارج الإيالة، وأخذ رخصة السفر [**Passeport**] من قطر إلى قطر من الأمر الأكيد في حق من يريد اطمئنان نفسه طول مدة السفر، حتى لا يحصل له امتحان بتساهله في استصحابه معه، مراعيا في ذلك القواعد العرفية بالطبع عليه في الإدارات المكلفة في كل ناحية بذلك.

وقد استحضرت صورتي لرئيس الناحية بها، فكلف نائبه بتعجيل عمليته، فكان ذلك في أقرب وقت، وأقرب منه استخراج الصورة عند المصور العمومي بآلته الشمسية، وهذه الآلة من أعجب المخترعات الوقتية.

---

[1] - قدور بن أحمد بنغبريط. سياسي محنك. من مواليد مدينة تلمسان بالجزائر سنة 1288 هـ- 1872م. شغل مناصب هامة من ضمنها تعيينه رئيسا للتشريفات الملكية. وذلك ضمن عهد السلطان المولى يوسف. كما عمل رئيسا لجمعية أوقاف الحرمين الشريفين. فكلف في هذا الصدد بإعادة تنظيم هذه الأوقاف. الشيء الذي دفعه للقيام بزيارات عديدة لدول شمال افريقيا. بالإضافة إلى بلاد الحجاز التي زارها على رأس وفد من مندوبي الجمعية المذكورة. وكان خلالها مبعوثا من طرف جلالة المغفور له المولى يوسف إلى الشريف حسين بن علي ملك الحجاز. وذلك سنة 1334 هـ-1916م.

ولمترجمنا الدور البارز في تشييد مسجد باريس والمعهد الإسلامي المجاور له. وهو الذي تولى مأمورية استدعاء وفود الدول الإسلامية لحضور تدشينهما بباريز سنة 1926م. كما تولى إدارة شؤون هذا المسجد إلى حين وفاته سنة 1373 هـ- 1954م. ودفن بالمسجد نفسه.

[2] ـ التسريح : جرت العادة إبان عهد الإستعمار الفرنسي للمغرب أنه من المحذور على أي شخص أن يغادر مدينته إلى مدينة آخرى داخل الوطن أو خارجه إلا بتسريح من طرف سلطات الإحتلال، وعن ضرورة اتخاذ التسريح قال المؤلف في كتاب آخر له، وهو تاج الرؤوس، في التفسح بنواحي سوس :

خُذْ رُخْصَةَ التّسْرِيحِ فِيهِ وَكُنْ لِمَنْ * لاَقَـيْـتَ مُـتَّـعِـظـاً أَخَـا إِذْعَـانِ

وَإِذَا وَصَـلْـتَ إِلَـى مَـحَلِّ حُـكُومَةٍ * فَـاطْبَعْ عَـلَـى التَّسْرِيحِ دُونَ تَـوَانِ

فَـلَـرُبَّمَا رَدَّتْـكَ عَــنْ قَـهْـرٍ لِمَـوْ * طِـنِـكَ البَـعِيدِ فَظَاظَةُ الأَعْـوَانِ

وقد كانت وقعت المفاوضة بيني وبين جماعة من علماء الإيالة المغربية وغيرها في أخذ الصور بها، وعرض الشخص نفسه على التصوير بها، وإدراج الصور في الكتب والتآليف العصرية وغيرها هل مستعمل ذلك يدخل في الوعيد الموعود به المصورون، الوارد ذلك في الصحاح التي منها قول النبي صلى الله عليه وسلم : إن أصحاب هذه الصور معذبون يوم القيامة، يقال لهم أحيوا ما خلقتم[1] ونحو هذا من الوعيد الشديد.

مع ما قرره العلماء في حرمة الحضور بالأماكن التي فيها الصور، حيث أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة كما في الحديث[2] ،مع ما في ذلك من مضاهاة خلق. وقد حرر حكم الله في مسألة الصور شراح مختصر الشيخ خليل لدى قوله : وصور على جدار، ونظم الشيخ سيدي علي الأجهوري رحمه الله محصل قولهم فيما نقصَت الصورة فيه عضوا من الأعضاء الظاهرة، فلا يُحرم النظر إليه مع زيادة تفصيل في تام الصورة من ذلك.

وَتِـمْـثَال ذِي ظِـلٍّ إِذَا دَامَ حَرَّمُوا * وَمَا لَـمْ يَـدُمْ أَيْـضاً وَأَصْبَغُ[3] خَالَفَا

وَمَـا لَيْسَ ذَا ظِلٍّ وَصَاحِبُ مِهْنَةٍ * فَـتَرْكُ لَـهُ أَوْلَـى وُقِـيتَ الـمُخَالِفَا

---

[1] ـ إشارة للحديث الذي رواه البخاري عن عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاذَا أَذْنَبْتُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ قُلْتُ اشْتَرَيْتُهَا لَكَ لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ فَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ وَقَالَ إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ. أنظر صحيح البخاري [كتاب البيوع] بَاب التِّجَارَةِ فِيمَا يُكْرَهُ لُبْسُهُ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، رقم الحديث 1963

[2] ـ إشارة للحديث الذي رواه البخاري عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ : سَمِعْتُ أَبَا طَلْحَةَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةُ تَمَاثِيلَ. انظر صحيح البخاري [كتاب بدء الخلق] ذكر الملائكة، رقم الحديث 2986

[3] ـ إشارة للعلامة أبي عبد الله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع المصري، من كبار المالكية بمصر، قال ابن الماجشون في حقه : ما أخرجت مصر مثل أصبغ، توفي ببلاده [مصر] عام 225هـ. أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج 1 ص 333.

وَأن يـعر عـنها فَـهْوَ يُـكْرَهُ ثُـمَّ ذَا * بِـغَيْرِ تَـمَاثِيلِ الـجَمَادَاتِ فَـاعْرِفَا
وَأَمَّـا تَـمَـاثِـيلُ الـجَـمَـادِ فَـجَـائِـزٌ * كَنَاقِصِ عُضْوٍ مِنْ سِوَاهُ فَلاَ خَفَا

وقد ذيل هذه الأبيات الشيخ الرهوني[1] فقال متعقبا للبيت الأخير منها :

وَلَكِنَّ ذَا رَدٌّ صَوَابُهُ إِنَّمَا * يَجُوزُ كَرِجْلٍ لِلبَهِيمَةِ تُقْتَفَى

قال : وما ذكرناه من أن الناقصَ جائزٌ أي مباح : نحوه لأبي الحسن عن المقدمات كما تقدم، فليس حكمه حكم ما ليس له ظل، فإنه إما مكروه أو خلاف الأولى، وانظر هل ستر العضو بشيء، بحيث لا يرى كنقص العضو أم لا، وللشافعية فيه تردد.إهـ.. قلت : ومقتضى عدم دخول جبريل عليه السلام للبيت النبوي حين كان الكلب تحت السرير[2] لا يرى يكون الحكم في ستر العضو على السواء في عدم ستر ذلك، إلا أن

[1] ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الرهوني، شيخ الجماعة، وخاتمة المحققين والعلماء العاملين، نشأ بفاس وبها أخذ العلم، ثم انتقل لمدينة وزان وبها توفي بعد فجر يوم السبت 13 رمضان عام 1230هـ، من مصنفاته : أوضح المسالك وأسهل المراقي، وهو حاشية على شرح الزرقاني لمختصر خليل، في الفقه، 8 أجزاء، وحاشية على شرح مياره الكبير للمرشد المعين، لم يتمه، والتحصن والمنعة ممن اعتقد أن السنة بدعة.

انظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 378 رقم الترجمة 1512، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 352 رقم الترجمة 783،

[2] ـ إشارة للحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُجَيٍّ قَالَ : قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَانَ لِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَدْخَلَانِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار، وَكُنْتُ إِذَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي تَنَحْنَحَ، فَأَتَيْتُهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَالَ : أَتَدْرِي مَا أَحْدَثَ الْمَلَكُ اللَّيْلَةَ، كُنْتُ أُصَلِّي فَسَمِعْتُ خَشْفَةً فِي الدَّارِ، فَخَرَجْتُ فَإِذَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَ : مَا زِلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ أَنْتَظِرُكَ، إِنَّ فِي بَيْتِكَ كَلْبًا فَلَمْ أَسْتَطِعْ الدُّخُولَ، وَإِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا جُنُبٌ وَلَا تِمْثَالٌ. انظر مسند الإمام أحمد [مُسْنَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ] من مسند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، رقم الحديث 574

آخر الحديث يقضي بصحة جواز ما ليس تام الصورة، لأمره صلى الله عليه وسلم بجعل الستر وسادتين[1]،

ويحتاج في هذه المسألة إلى بسط كلام ليس هذا محله إلا أن المفاوضة التي وقعت بيننا انفصلت على أن التصوير الشمسي إنما يسمى طبعا على الورق الماسك للصورة المتجلية على مرآة الآلة ذات الظل المنعكس، ولا يسمى تصويرا إلا إذا كان بغير الآلة،

ومع ما في ذلك فلينظر في حكم التصوير بها ومقابلتها عمدا لتبرز الصور على ما هي عليه إلى غير ذلك من المقاصد، وللضرورة أحكام تخصها. ولأن يعتمد المكلف على أقوال العلماء المعتمد عليهم في الأحكام من غير تساهل فيها أولى من البقاء على الجهل، والعمل بمقتضاه في عدم الاكتراث بالتزاحم بالوقوف في مجامع المحافل أمام

---

[1] ـ إشارة للحديث الذي رواه البخاري عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ لِي عَلَى سَهْوَةٍ لِي فِيهَا تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَتَكَهُ، وَقَالَ : أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ، قَالَتْ : فَجَعَلْنَاهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ. انظر صحيح البخاري [كتاب اللباس] بَاب مَا وُطِئَ مِنْ التَّصَاوِيرِ، رقم الحديث 5498

المصورين، ولذلك تجدني أتستر غالبا وراء المتقدمين للتصوير[1]، فلا أرى نفسي في صفهم إلا إذا اقتضت الضرورة لذلك خشية وصفي بالورع الكلي فيما هو أكبر من ذلك، وقد كتبت مرة على صورة وجهتها لبعض الأحباب هذين :

يَا قَوْمِي رُوحِيَ قَدْ مَلَّكْتُهَا لَكُمُ * وَفِي فِدَائِكُمُ قُولُوا لَهَا رُوحِي
فَهْيَ الَّتِي عِنْدَكُمْ حَلَّتْ مُخَيِّمَةً * وَهَا أَنَا صُورَةٌ أُرَى بِلاَ رُوحِ

---

[1] ـ عن هذا الموضوع يقول المؤلف في كتابه الرحلة الحبيبية الوهرانية : أمَّا التصوير بهذه الآلة فقد سألتُ عنه جماعة من أشياخنا فمالوا كلهم إلى الكراهة دون التحريم وَأنَّ الأولى ترك ذلك، وبعضهم يرى جوازه وإليه مال جل المشارقة العصريُّون بدليل صورهم المنطبعة على تآليفهم قيد حياتهم المطبوعة على نفقاتهم ومقابلتهم لها بالتصحيح وإلا لما ساغ لهم فعل ذلك ولا السكوت عنه لو كانوا يقولون بغير الإبَاحة، وَبعضهم يتخذ صورته في حال شبابيته وَفي صغره ليقابلها في حال شيخوخته فيرَاها موعظة له في تقلبات أطواره، وبعضهم يرسلها لأحبته في غيبته تذكرة لتشخيصه عندهم فتكون نسخة من ذاته، وَلمَّا سمعَ مني هذا الكلام طلب مني [يعني مضيفه بمدينة وهران سيدي محمد القباج] استعمال بيتين ليرسمهما على صورة أخذت من شخصه بهذه الآلة ليوجهها لأخيه وَأحبابه بفاس، فقلت في ذلك :

انْظُرْ إِلَى صُورَةٍ عَنْ رُوحِهَا انْسَلَخَتْ * وَقَدْ أَتَتْكَ بِشَوْقٍ كَادَ يُفْنِيهَا
لَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنَّ الرُّوحَ قَدْ سَكَنَتْ * لَدَيْكَ وَجَّهْتُهَا إِلَيْكَ تُحْيِّيهَا

ثمَّ أرَاني صُورَتَهُ المشار لها فلما نظرتها قلتُ :

يَا صُورَةً فِي فُؤَادِي مِثْلُهَا انْطَبَعَا * وَحُسْنُ طَلْعَتِهَا مِنَ البَهَا سَطَعَا
اللَّهُ يَحْفَظُ مَنْ أَصْبَحَتِ صُورَتَهُ * وَقَدْرُهُ فِي العَلاَ لاَ زَالَ مُرْتَفِعَا

وَكان ابن عمه النجيب محل الوَلد الصالح سيدي الحبيب بن سيدي محمد حاضراً فطلب مني استعمال بيتين لمثل ذلك، فقلتُ تنشيطا له :

صُورَتِي سَلِّمِي عَلَى سَائِرِ الأَحْـ * ـبَابِ مَهْمَا يَرَوْكِ مِنْ غَيْرِ رُوحِ
فَلَدَيْهِمْ رُوحِي أَقَامَتْ فَسِيرِي * لِتَرَاهُمْ وَبَعْدَ ذَلِكَ رُوحِي

وكتبت على أخرى هذين البيتين :

يَا أُنَاسِي شَوْقِي إِلَيْكُمْ عَظِيمُ * بَعْضُهُ فِيهِ فَوْقَ بَعْضٍ تَرَاكُمْ
قَدْ أَقَامَتْ رُوحِي لَدَيْكُمْ لِهَذَا * قَدْ أَتَتْ صُورَتِي إِلَيْكُمْ تَرَاكُمْ [1]

فلا مندوحة من الإعتماد على قول مبيح لغير الصور المنحوتة بالصناعة اليدوية لإدراج التصوير الشمسي ونحوه من غير المنحوت في الفنون العصرية التي يحتاج إليها التلامذة والمهتمون وغيرهم في بعض الأحيان، فيدخل حينئذ حكم استعمالها والتعرض لآلة التصوير لاستخراج الصور تحت قاعدة : الضرورات تبيح المحظورات، على أن المطبوع منها إما أن يكون مكروها أو خلاف الأولى، أو ليس من هذا القبيل.

---

[1] ـ وقفت بالخزانة السكيرجية على كثير من الصور الفوتوغرافية ذات الصلة بالمؤلف، وقد كتب على ظهر معظمها أبياتا شعرية للتعريف بما تحمله الصورة من أشخاص ومعاني وإشارات وغيرها، ومما كتبه على صورة له ولابنه سيدي عبد الكريم، وكان قد بعث بها لوالديه الكريمين بفاس :

وَالِدَايَ الكِرَام إِنِّي مَشُوقٌ * لَكُمُ دَائِماً أُرِيدُ لِقَاكُمْ
هَذِهِ صُورَتِي وَصُورَةُ نَجْلِي * قَدْ أَتَتْكُمْ لِتَمْنَحُوهَا رِضَاكُمْ
سَكَنَتْ رُوحُهَا لَدَيْكُمْ فَسَارَتْ * دُونَ رُوحٍ إِلَيْكُمُ لِتَرَاكُمْ

وكتب رضي الله عنه على صورة مشابهة للصورة الأولى، وقد بعثها هي الآخرى لوالديه بمدينة فاس :

أَحِبَّتَنَا هَذِهِ صُورَتِي * أَتَتْ لِتَفُوزَ بِرُؤْيَتِكُمْ
وَفِي جَنْبِهَا وَلَدِي نَاظِرٌ * إِلَيْكُمْ لِيَحْظَى بِدَعْوَتِكُمْ
فَنَأْمَلُ مِنْكُمْ دَوَامَ الرِّضَى * وَحُسْنَ قَبُولٍ بِعَطْفَتِكُمْ
فَلاَ زَالَ جَمْعُكُمْ سَالِماً * إِلَى أَنْ نَرَاكُمْ بِجُمْلَتِكُمْ

وكتب رضي الله عنه على صورة مشابهة للصورتين الأوليين، وقد بعثها أيضا لوالديه بمدينة فاس :

أَتَتْكُمْ صُورَتِي تَبْغِي رِضَاكُمْ * وَتَسْأَلُ مِنْكُمُ حُسْنَ القَبُولِ
وَوَافَتْكُمْ وَفِي يَدِهَا كِتَابٌ * لِيَشْفَعَ لِي فَنَحْظَى بِالوِصَالِ
وَبَيْنَ يَدِيَّ مِنْ وَلَدِي إِلَيْكُمْ * تَمَلُّقُهُ لِنُدْرِكَ كُلَّ سُولِ
فَإِنَّا بَعْدَ بُعْدِكُمُ غَدَوْنَا * نُرَى صُوَراً لَدَيْكُمْ بِالنُّحُولِ
فَنَسْأَلُ مَنْ قَضَى بِشَتَاتِ شَمْلِي * بِكُمْ جَمْعاً عَلَى رَغْمِ العذُولِ

ولربما تداخل التصوير في الإدارات الشرعية بكتب العقود بمحول الصورة في كاغد مثل كاغد التنبر المكتوب عليه ما يحرر من العقود، ويطبع عليها لزيادة التحري بصحة بين المتعاقدين بما ينفي التزوير وتقع بذلك فائدة أخرى لصندوق التسجيل وبكاغده الخاص به، طبق ما جرى عليه العمل بالطبع على الصورة في التسريح المنوط بطالب السفر لقطر آخر ونحو ذلك،

وبعد حيازتي للتسريح المطبوع على صورتي فيه توجهت لرباط الفتح على متن التي خرجت للناس في هذا الزمان مقيدة بسكة الحديد[1]، وقد كادت أن تكون هي الموعود بها في قول الله تعالى : أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم[2]، من التكليم، وقرئ تكلمهم من الكلم بمعنى الجرح، وذلك التكليم وإن لم يكن بنطقها هنا فإن الآية الشريفة شاملة للنطق المتعارف بنفسها أو بواسطة كما هو ظاهر فيها، ولا يمنع أن يكون كلامها بلسان الحال، أو بما يقع مقام الكلام الحقيقي مما هو من نحو الكلام اللغوي من إشارة ونحوها.

---

[1] ـ تعرض العلامة سكيرج للحديث عن القطار وسكته الحديدية في مواضع كثيرة من مؤلفاته، منها قوله في كتابه الرحلة الحبيبية الوهرانية : أمَّا هيكل هذا البابور المسمّى [الشمندوفير] ويقال له أيضا [المشينة] فهو بيوت منفصلة على نواعير من حديد، أمَامَ كل بيت مخاليب تجعل في خرص في البيت الذي يراد إلصاقه به، وَقد تَتعدَّد البيوت، هذا متصل بهذا، وهذا متصل بهذا، وَفي الأمام ماكينةُ جَرِّهِ، وَقد تتأخّر ماكينة أخرى،

وَالنَّواعير موضوعة عَلى سكة حديد ممدودة على وجه الأرض من المحَلّ الذي هي به إلى المحل المقصود، وَامتدادها بحسب انبساط الأرض، فَإن صادفت عقبة تنعطف السكة معها، أو تشقها شقا تصير به الأرض على وثيرة واحدة، حتى أنه إذا صادفت جبلا عاليا فَإنه يُجْعَلُ فيه مغارة يدخل منها للجهة الأخرى، كل ذلك بصنعة خصوصية، يُقَاسون شدتها في وضع سكّته، ويحمدون نفعها بعد العَمل،

وفي بيوته مواضع أعدّت للجلوس، وَعن اليمين وَاليسار باب مفتوح ينظر منه الطريق والأراضي المار عليها، وذلكَ من أحسن المناظر التي تسلي الخاطر، إلا أنه يكتب من أعلى الباب تنبيه على أن لا يمـد الشخـص رأسه أو يده ونحوها إلى الخارج من إحدى هذه الأبواب، وقد يضرب عليها قضيب حديد أو صفر عرضا منعا من مدّ شيء إلى الخارج لئلا يصاب المادُّ بضرر وَعطب ممّا يصادفه من خارج، فهذا بعض ما يتعــلق بوصفه في الجــملة

[2] ـ سورة النمل، الآية 82

غير أن الإعجاب من الدابة المنصوص عليها لا يتم إلا إذا كان كلامها بالكلام المتعارف بالعربي وغير العربي مما يفهمه الناس الذين أخرجت لهم، ولا يتردد الإعجاب منها إلا إذا كانت دابة غير إنسانية تنطق بالكلام المفهوم ولا عقل لها، لأن كلامها لا يدل على أن لها عقلا، وقد تكون عاقلة وهي من جنس الدواب، فتكون من الحيوان من غير نوع الإنسان، تُكلِّمهم بخطاب مفهوم أو تكلمهم بجرح معلوم.

وليس ذلك بمحال في جانب القدرة فقد كلمت البقرة صاحبها كما في الصحيح، فقيل سبحان الله، فقال عليه السلام : آمنت بهذا وأبو بكر[1]، لعلمه صلى الله عليه وسلم بتصديق أبي بكر له فيما يخبر به، وهذه الدابة المقيدة بسكة الحديد تعلم بحركتها بواسطة سائقها، وربما جرحت الغافلين عنها أو باصطدامها أو لخروجها عن قيدها ونحو ذلك. وعلى كل حال فلا يبعد أن تكون هذه الدابة من نوع ما هو موعود بإخراجه للناس[2].

---

[1] إشارة للحديث الذي رواه البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ قَالَ آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَخَذَ الذِّئْبُ شَاةً فَتَبِعَهَا الرَّاعِي فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي قَالَ آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ قَالَ أَبُو سَلَمَةَ وَمَا هُمَا يَوْمَئِذٍ فِي الْقَوْمِ. انظر صحيح البخاري [كتاب المزارعة] باب استعمال البقرة للحراثة، رقم الحديث 2156

[2] ـ قال العلامة سكيرج في وصف القطار في كتابه الرحلة الحجازية [1334هـ ـ 1916م] ضمن إحدى مقاماته الأدبية القصيرة، حيث سأل أحدهم الآخر عن القطار، فقال مجيبا له : أتعني المُسَخَّرَةُ بالبخار، في البراري والبحار، وأدوات الجر بالحيوان، على اختلاف الأوضاع والألوان، فقال : أريد تلك الدابة المشينة وهي مليحة، الخفيفة في السير وهي رجيحة، تشق الأرض، من طول وعرض، تجري على سكة الحديد، وتجر الأثقال من القطر البعيد، من غير جهد جهيد، بثمن زهيد، فقال : وصفت البابور بصفة، يحصل بها للجاهل المعرفة، وأني ركبت هذه الدابة الذلول، التي لا يمل ركوبها ملول، فأرحت نفسي من ثقل الأحمال، وخبث الحمار والحمال، واسترحت من وعثاء السفر، بوقوفها في محالات الحضر، من غير خوف ولا حذر، بين من غاب وحضر، فلو سايرها النعام، لوقف دونها عدوا، ولو تطاير معها الريح، لانحبس دونها شأوا، تسير بالراكب، سير الكواكب، يضرب بها المثل، ويعظم أجرها عند العمل، لو أنصف الناس الأمم التي مهدت طرقها، وأنارت افقها،لشاطروها أجرهم، واستقلوا خيرهم.

وبعد وصولي لرباط الفتح وجدت الغطريف السيد الحاج مصطفى ابن غبريط قام بتنضيد ورقة الركوب ذهابا وإيابا. وهناك اجتمعت به فمكنني منها مع اشتمالها على تسريح خاص من غير احتياج فيه إلى صورة التعريفات الإدارية.

وقد ضربت معه موعدًا بالتلاقي معه بمحطة فاس ليلة الاثنين حيث يمر مع المعينين من الأعضاء الشرفيين للحضور بهذه الجمعية من الأعتاب الشريفة وهم العلامة وزير العدلية الشريف سيدي محمد بن العربي العلوي[1]، والنابغة السيد أحمد الهواري[2]، ورئيس الغرفة التجارية بالدار البيضاء الأمين السيد عبد الرحمان بن جلون،

وقد أصبحت بمدينة فاس يوم السبت فاغتنمت صلة الرحم بها مع بعض الأقارب

[1] ـ محمد بن العربي العلوي المدغري. فقيه قاض. أخذ عن جماعة من كبار علماء وقته. منهم أحمد بن الخياط الزكاري. ومحمد (فتحا) بن قاسم القادري. وخليل الخالدي. بالإضافة لأبي شعيب الدكالي. وهو عمدته وموجهه وبه تخرج.

وقد تولى مهاما ومسؤوليات عديدة. منها رئاسة مجلس الاستئناف بمدينة الرباط. وهو العمل الذي كان يشغله أثناء هذه المناظرة. كما تولى من بعد منصب وزير العدلية. توفي مساء يوم 23 محرم الحرام 1384هـ-4 يونيه 1964م بالرباط. ثم نقل جثمانه إلى مسقط رأسه مدغرة. وبها دفن. أنظر ترجمته في سل النصال لابن سودة 195-197. موسوعة أعلام العرب 9: 3383-3385. إتحاف المطالع، لابن سودة 2 : 583

[2] ـ أحمد بن محمد الهواري، من كبار علماء القرويين بفاس، تقلد في وظائف مخزنية كثيرة، له بعض المؤلفات، توفي بمدينة الدار البيضاء ليلة الخميس 8 ذي الحجة الحرام عام 1372هـ ـ 18 غشت 1953م، ودفن بروضة أهل فاس بمدينة الدار البيضاء، أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 2 : 536 ، موسوعة أعلام المغرب 9 : 3283

والأحباب. فاجتمعت بأخي الفقيه السيد عبد الخالق سكيرج[1]، وبابنه الأديب السيد عبد الغني[2] الملازم لدروس القرويين النظامية، فأكدت عليه بالإقبال عليها بقلب وقالب والنصح لطلبة العلم بالقيام بشروط التنظيم في التعلم والتعليم. لأن ذلك من الإصلاحات النافعة للطلبة الذين يهمهم حسن مستقبلهم مع ما في ذلك من إظهار الخضوع للحضرة الشريفة المحمدية الآمرة بإجراء العمل بمقتضاها داخل جامع القرويين، لنفعهم المؤمل في الحال والإستقبال.

---

[1] ـ عبد الخالق سكيرج : هو رابع إخوة العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج. ولد بفاس عام 1307هـ. وبها نشأ وشب. فحفظ ما تيسر له من القرآن الكريم. قبل أن يلج جامع القرويين. حيث تلقى بها قسطا وافرا من تعليمه. بيد أنه توقف عن الدراسة بها لأسباب قاهرة. وذلك عقب وفاة والده عام 1328 هـ. فاشتغل إذ ذاك في بعض الأعمال الحرة إلى حين عام 1332 هـ. وهو العام الذي عين فيه شقيقه العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج ناظرا لأحباس فاس الجديد. فعمل بجانب أخيه في الوظيفة المذكورة. بعدما اتخذ له سجلا يدون فيه مداخيل الأحباس باليوم والشهر والسنة.

ثم تخلى عن هذه الوظيفة مباشرة لدى انتقال أخيه لخطة القضاء بمدينة وجدة. لكنه عاد ليعمل بجانبه من جديد حين تعيينه على رأس القضاء بمدينة الجديدة. فكان كاتبا له. ينسخ الرسوم العدلية بخطه الأنيق. بيد أنه ما لبث أن تخلى عن هذه الوظيفة. وذلك لدى انتقال أخيه للقضاء بمدينة سطات.

وهو إلى جانب ما ذكرناه واحد من جلة مريدي الطريقة التجانية في وقته. تمسك بها منذ السنين الأولى من شبابه. وذلك على يد المقدم الشريف سيدي الطيب السفياني. ومما يذكر عنه في هذا الصدد أنه كان شديد الاهتمام بالزاوية التجانية الكبرى بفاس. حريصا على أداء ذكر الوظيفة بها بعد صلاة المغرب من كل يوم. كما كان يصلي بها معظم صلواته الأخرى، وهو علاوة على ذلك رجل محبوب. على جانب من حسن الخلق والخلقة. مجبول على محبة الخير. دائم الابتسامة. مشرق الوجه. عذب الكلام. حسن المعاملة. يتحلى بذكاء وفطنة زائدة.

توفي صبيحة يوم الخميس 25 ربيع الثاني عام 1361 هـ-16 أبريل 1943 م. على إثر مرض لم يتمكن من التغلب عليه. إذ لم يمهله أكثر من أسبوع واحد. وذلك من جراء المجاعة والوباء الذي عم مجموع أرض الوطن إذ ذاك. بسبب مضاعفات الحرب العالمية الثانية ونتائجها الوخيمة.

[2] ـ ـ عبد الغني بن عبد الخالق بن الحاج العياشي سكيرج، ابن أخ المؤلف، شاعر، له مؤلفات ودواوين عديدة منها : ـ ديوان حب الحصيد، ديوان نضد النضيد، معركة الوظيفة، هؤلاء عرفتهم، تجربتي الشعرية، الروض المتأرج، في تراجم آل سكيرج [مخطوط] توفي بطنجة رحمه الله يوم الجمعة 4 شوال عام 1417هـ ـ 12 فبراير 1997م

وأكدت عليه بحفظ دروسه وتفهمها وترك الاشتغال بقرض الشعر، فإن من خاض فيه قبل تحصيل العلوم النافعة يشغله عنها، ويقطع جن الشعر بإنشائه وإنشاده طرق التعلم والتعليم على متعاطيه، ويظن المجيد فيه أنه فاق غير لو في العلم خصوصا إذا كانت معه بعض المعلومات وساعده الحظ بشقشقة لسانية ونفثات بيانية، يظن بذلك أنه من أعلام الناشرين في الإصلاح الأعلام، ولا سيما إذا كان جريئا على الكلام، ويسكت عنه الأعلام أو تعظمه العوام، فتلك مصيبة هذه حالته، لأن الغالب عليه الاكتفاء من العلم بما لديه، والإعراض عن التضلع من العلم الصحيح بما يحصل الطالب عليه من بعض المعلومات السطحية، من نحو يظن أنه صار به وارث سيبويه[1]، فيلحن من تكلم بمحضره، ويتبجح بالتفصح على غيره في شفوف نظره.

وقد أخبرني شيخنا خبيئة المعارف العلامة سيدي الحبيب[2] بن شيخ الجماعة

---

[1] ـ عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، الملقب بسيبويه، إمام النحاة، ولد بإحدى قرى شيراز عام 148هـ، وتوفي شابا عام 180هـ، من مصنفاته : كتاب سيبويه، في علم النحو، وهو تصنيف لم يصنع قبله ولا بعده مثله، أنظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 385، وفي البداية والنهاية لابن كثير ج 10 ص 176، وفي تاريخ بغداد للخطيب ج 12 ص 195، وفي الأعلام للزركلي ج 5 ص 81.

[2] ـ العلامة سيدي الحبيب بن الحاج الداودي التلمساني، فقيه، محدث، أديب، كانت له خبرة كبيرة بعلم أسرار الحروف، وهو من أكبر أساتذة وشيوخ العلامة سكيرج، توفي رحمه الله قرب الساعة العاشرة من نهار يوم السبت فاتح شهر شوال عام 1325هـ ، بعد غيبوبة دامت أربعة أيام، ورثاه العلامة سكيرج بقصيدة قال في مطلعها :

عَلاَمَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْكِ يَجْرِي * وَيَحْكِي فِي التَّلاَطُمِ مَوْجَ بَحْرِ
وَنَفْسكَ فِـي أَنِيـنٍ وَانْزِعَاجٍ * كَأَنَّكَ قَلْبُ قَلْبِكَ فَوْقَ جَمْرِ
أَمِـنْ فَقْدِ الـحَبِيبِ أَطَلْتَ حُزْناً * نَعَمْ وَاللَّهِ فِيهِ فَقَدْتُ صَبْرِي

انظر ترجمته في قدم الرسوخ للعلامة سكيرج رقم الترجمة 14، وترجمته واسعة في كتاب حديقة أنسي في التعريف بنفسي للعلامة سكيرج،

سيدي الحاج الداودي أن شيخ الجماعة الشهير كلا بناني[1] كان يقول لمن يلحن شخصا بمحضره تأديبا وتخفيفا عن اللاحن من وطأته : كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم[2]. على أن النحو مع ما اندرج تحته من تصريف واشتقاق وغير ذلك إنما هو آلة يتوصل بها لما هو أنفع منها، مثل علم الفقه الذي هو البحر العميق، ولا ينفع عمل من مكلف بدونه في سلوك الطريق، وقد قيل فيه :

إِذَا مَــا اعْـتَـزَّ ذُو عِـلْـمٍ بِعِـلْـمٍ * فَعِلْمُ الفِقْهِ أَكْبَرُ فِي اعْتِزَازِي
فَـكَـمْ عِـلْـمٍ يَـجلُّ وَلاَ كَـفِـقْهٍ * وَكَــمْ طَـيْـرٍ يَـطِـيـرُ وَلاَ كَـبَـازِ

وهذه بلا شك نصيحة لطالب العلم الصحيح التي يقدر قدرها ذووا العقل الرجيح، ثم تشرفت بزيارة المدرسة المحمدية الكائنة بالصفارين من هذه الحضرة، وقد عاد لها شبابها بتجديدها على الطرز الحادث بما انشرحت به صدور الطلبة وخلد لإدارة الأحباس بإصلاحها ذكر جميلا،

[1] ـ سيدي أحمد بناني كلا، فقيه، حافظ، صوفي، شيخ الجماعة بفاس في وقته، أخذ العلم عن جماعة من جلة فقهاء فاس، وعمدته فيهم العلامة سيدي عبد السلام بوغالب، قال في حقه العلامة الحجوجي عند ترجمته له من كتابه فتح الملك العلام : وكان كثير الذكر والتلاوة بالخشوع والبكاء، وورده من صلاة الفاتح لما أغلق بين اليوم والليلة عشرة آلاف، وكان يقوم طرفا من الليل، وحج مرتين وزار، ودخل مصر وحصل له هناك ظهور واشتهار، وأخذ الإذن في الورد التجاني عن العارف بالله سيدي محمد الغالي بوطالب الحسني، وأجازه في إعطاء الأوراد البركة الصالح سيدي الحاج عبد الوهاب بن الأحمر وغيره، وكان إماما راتبا بالزاوية الأحمدية مدة طويلة إهـ . . . توفي رحمه الله قرب شروق يوم الجمعة 8 جمادى الأولى سنة 1306هـ، عن سن يناهز التسعين، وصلي على جنازته بعد صلاة الجمعة بجامع القرويين، ودفن خارج باب الفتوح بفاس. أنظر ترجمته في فتح الملك العلام، للفقيه الحجوجي بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 64، وفي نخبة الإتحاف لنفس المؤلف رقم الترجمة 145، وفي كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 193، وفي روض شمائل أهل الحقيقة لابن محم العلوي الشنجيطي رقم الترجمة 28،

[2] ـ سورة النساء، الآية 94

وقد شاهدت البناء الضخم للمعهد العلمي الذي وضعت حجرة أساسه يد الحضرة الشريفة قبالة المدرسة المذكورة، مع إزالة ما كان حاجزا بينهما من البناءات بما أكسب لذلك رونقا بديعا وصنعا رفيعا.

ودخلت لإدارة المجلس العلمي المفتوح بابه بجامع القرويين هناك، فاجتمعت بها بمراقب الدروس العلمية شاعر الحمراء العبقري السيد أحمد بوستة[1] فرافقني لزيارة بعض الأعضاء بها الذين من جملتهم العلامة سليـــل المجد الشريف سيدي محمد بن الطيـب بن محمد البكراوي[2] والعلامة سليل الفضل الشريف سيدي محمد الزمزمي الكتاني[3] وغيرهما،

فقابلونا بالترحيب، وأدخلوا علينا سرورا عظيما بما أخبرونا به مما هو جار من التنظيم العلمي على الوجه المأمور به بإقبال الطلبة عليه بأوجه القبول حيث تحققوا بمنافعهم به، ثم رافقني لداخل القرويين للوقوف على بعض الدروس بالمجالس المنظمة حال إلقاء المدرسين لدروسهم بما ازدهر به جامع القرويين أي ازدهار، وداخل تلك الدروس من النظام الرفيع المقدار.

---

[1] ـ أحمد بن عمر بوستة المراكشي، من أولاد بوستة المعروفين بمراكش، فقيه فاضل، من خيرة شعراء وقته، توفي في أواسط شهر شوال عام 1377هـ ـ أبريل 1958م، أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 2 : 565

[2] ـ محمد بن الطيب البدراوي الودغيري الحسني، من خيرة علماء فاس، تقلد مناصب ووظائف مختلفة، منها عضوية الإستيناف الشرعي بالرباط، توفي عشية يوم الخميس 14 شعبان عام 1393هـ ـ 12 شتنبر 1973م، أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 2 : 619 ، موسوعة أعلام المغرب 9 : 3447

[3] ـ محمد الزمزمي بن العلامة الشيخ سيدي محمد بن جعفر الكتاني، من كبار فقهاء فاس، له مؤلفات، توفي بالشام يوم الثلاثاء 6 صفر الخير عام 1371هـ ـ 6 نونبر 1951م، ودفن هناك بدمشق، انظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 2 : 531 ، سل النصال، للمؤلف نفسه 147 ـ 148 رقم الترجمة 176، موسوعة أعلام المغرب 9 : 3269 ـ 3270

وطالما تمنيت أن أحضر به في وقت عمارته بالدروس بعد التنظيم لغيبتي عن هذه الحاضرة مدة، وإذا صادف مروري بها لمأمورية فإني أجد الطلبة في استراحة، فابتهج صدري بما شاهدته من تلك الأنوار المتشعشعة، وما أضيف لهذا الجامع الأعظم من الإصلاحات التي تُذكر فتُشكر، وفضل القائم بها لا يُنكر.

ورأيت جماعة هناك من المدرسين الذين انخرطوا في سلك التعليم ممن أعرفهم وممن لا أعرفهم لطول غيبتي عن مخالطة علماء فاس، إلا من بقي ممن أعرفهم وهم قليل القليل ممن فقدته منهم، وفر الله عدد هذه البقية، وزاد في مددهم بجاه خير البرية، عليه الصلاة والسلام.

وقد انتهزت بفرصة حلولي بفاس زيارة الزاوية التجانية[1] التي وجدتها قرب صلاة الظهر ممتلِئَة بالذاكرين سرا، وعامرة بالراكعين والساجدين، وجماعة منهم محتفة حول

[1] ـ نسبة للشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن محمد التجاني الحسني، صاحب الطريقة التجانية، أحد أشهر الطرق الصوفية وأكثرها انتشارًا في العالم، خصوصا في القارة الإفريقية السمراء، هو من مواليد قرية عين ماضي بالصحراء الشرقية عام 1150 هـ ـ1737م، كان أجداده يقطنون سابقا بمنطقة عبدة من إقليم مدينة آسفي بالمغرب، ثم انتقل جده الرابع إلى الصحراء، واستوطن قرية عين ماضي، وبها بقيت نسبة كبيرة من أبنائه إلى الآن.

أما الشيخ سيدي أحمد التجاني فقد استوطن بمدينة فاس خلال العقدين الأخيرين من عمره، ووجد بها ترحابا كبيرًا من طرف سلطان المغرب وقتئذ المولى سليمان، الذي صار فيما بعد من جملة تلامذته وأتباعه، كما أهدى له دارًا فخمة بمدينة فاس كانت تسمى إذ ذاك بدار المراية.

توفي رضي الله عنه بمنزله المذكور بمدينة فاس يوم الخميس 17 شوال عام 1230 هـ ـ 2 أكتوبر 1814م، ودفن بزاويته الكبرى بحي البليدة بفاس، وقد أُلِّفَتْ في حقه عشرات الكتب إن لم نقل المآت، منها كتاب جواهر المعاني وبلوغ الأماني، من فيض الشيخ أبي العباس التجاني، لتلميذه العارف بالله سيدي الحاج علي حرازم برادة، والجامع لما افترق من درر العلوم الفائضة من بحار القطب المكتوم، لتلميذه العارف بالله سيدي محمد بن المشري، والإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية، لتلميذه الشريف سيدي الطيب السفياني وغيرها.

العلامة المدرس السيد محمد بن عبد الله[1] وهو يلقي عليهم درسا من التفسير بأحسن تعبير، إلى أن أدّينا الصلاة هناك، وقد قضيت النهار كله في تفقد الأحباب وزيارة أماكن بعضهم إدخالا للسرور عليهم، وقياما بواجب شكرهم بإجابة جل من استدعانا لإكرامهم زاد الله في معناهم.

كما اغتنمت الفرصة بأداء بعض الصلوات المفروضة بجامع الضريح الإدريسي، وقبته العامرة الأوقات بتلاوة الذكر الحكيم وابتهاج صدور زائريه بالدعاء عقب الصلوات بما يبرهن على أن أهل فاس قائمون على ساق الجد بالتمسك بحبل الدين المتين، مع اطمئنانهم واشتغالهم بما يعنيهم وركون أصحاب الحرف وغيرهم للراحة في هذا الحين.

---

[1] ـ العلامة الأستاذ سيدي محمد بن الحاج محمد بن عبد الله الشاوني أصلا، الفاسي موطنا، من خيرة الحفاظ الملمين بأحكام القراءات السبع، ولد بفاس عام 1286هـ ـ 1869م، وبها تلقى العلم عن جماعة من العلماء منهم : سيدي التهامي بن المدني كنون، وسيدي محمد فتحا بن قاسم القادري، وسيدي أحمد بن الخياط، وسيدي حمان الصنهاجي، وسيدي محمد فتحا بن محمد بن عبد السلام كنون، وسيدي محمد بن التهامي الوزاني، وسيدي محمد بن علي الأغزاوي وغيرهم.

وهو من المتقيدين بعهد الطريقة التجانية، حيث أخذها وأجيز فيها عن جماعة منهم : العلامة سيدي الحاج محمد فتحا كنون، والشريف البركة سيدي محمود حفيد الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، والعارف بالله سيدي أحمد العبدلاوي، والمقدم الملامتي سيدي محمد بن الحاج أحمد بن سلطان الشركي بالقاف المعقودة وغيرهم.

وله تصانيف منها : إتحاف الخل الوفي بشرح ألفاظ الحزب السيفي، والزهر الفائح في شرح صلاة الفاتح، وكشف المعاني والأسرار بشرح تحفة أبي عبد الله الفخار لنظم متن الأجرومية، وكمال الفرح والسرور في التحذير من العقوق والحث على البرور، ومولد نبوي، وغير ذلك. انظر ترجمته في قدم الرسوخ، للعلامة سكيرج رقم الترجمة 3، وفي فتح الملك العلام، للفقيه الحجوجي بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 210.

ولم أحرم نفسي في هذا اليوم من الإجتماع بصاعقة العلوم، الخبير الفيلسوف الكبير، والمحدث الشهير، سيدي عبد الحي الكتاني[1] وفاء بعهده، وانقيادي إليه برابطة وده، فازددت إعجابا باعتنائه بالعلم وأهله، مما يبرهن على كمال فضله، وكأنه أفلاطون في دعاء والدته له بوفور حسدته، ولسان حال نشر فضائله ينشد :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ * طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

---

[1] ـ محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، محدث فقيه حافظ، ولد بمدينة فاس في ربيع النبوي سنة 1303هـ، وبها أخذ العلم عن جماعة من العلماء منهم: محمد بن المدني كنون، وعبد السلام الهواري، ومحمد بن قاسم القادري، وأحمد بن الخياط، ومحمد بن جعفر الكتاني، وأحمد بن الجيلالي الأمغاري وآخرين.

له مؤلفات كثيرة تنوف على 500 تأليف، منها: فهرس الفهارس والأثبات. والبيان المعرب، عن معاني بعض ما ورد في أهل اليمن والمغرب. والرحمة المسلسلة، في شأن حديث البسملة. ولسان الحجة البرهانية، في الذب عن شعائر الطريقة الأحمدية الكتانية، وغيرها. وكان العلامة سكيرج يشيد بصاحب الترجمة كثيرا وقد قال منوها به في بعض ختماته لصحيح البخاري ما نصه :

بِعَبْدِ الحَيِّ أَحْيَا اللَّهُ دِينَهْ * وَأَعْطَاهُ الفُتُوَّةَ وَالسَّكِينَهْ
حَبَاهُ اللَّهُ مِنْ عِلْمٍ لَدُنِي * جَوَاهِرَ فِي قِلاَدَتِهِ ثَمِينَهْ
بِهِ العَلْيَاءُ قَدْ أَضْحَتْ تُبَاهِي * وَفِي العِرْفَانِ رُتْبَتُهُ مَكِينَهْ
غَدَا بَحْراً مُحِيطاً فِي عُلُومٍ * بِهَا لِسِوَاهُ لَمْ تَعْبُرْ سَفِينَهْ
وَأَخْرَجَ مِنْ زَوَايَاهَا خَبَايَا * وَكَانَتْ فِي لَطَافَتِهَا كَمِينَهْ
فَلاَ تُحْصَى مَزَايَاهُ بِعَدٍّ * وَلَيْسَ يَرَى لَهَا أَحَدٌ قَرِينَهْ
فَيَا لِلَّهِ مَا أَبْدَى بِخَتْمٍ * أَقَرَّ بِفَضْلِهِ أَهْلُ الضَّغِينَهْ
فَلاَ زَالَتْ بِهِ العَلْيَاءُ تَسْمُو * بِتَأْيِيدٍ وَسَاحَتُهُ مَصُونَهْ
وَيَرْزُقُهُ الإِلَهُ كَمَالَ حِفْظٍ * مَحُوطاً بِالرِّعَايَةِ وَالمَعُونَهْ

توفي بباريس سنة 1382 هـ - 1962م. أنظر ترجمته في إتحاف المطالع لابن سودة 2: 578. شجرة النور الزكية لمخلوف 1: 620 (رقم الترجمة 1720) الأعلام للزركلي 6: 187. مقدمة كتابه فهرس الفهارس باعتناء الدكتور إحسان عباس 1: 5-33. رياض السلوان فيمن اجتمعت بهم من الأعيان للعلامة سكيرج 43. قدم الرسوخ فيما لمؤلفه من الشيوخ للمؤلف نفسه (رقم الترجمة 27)

فتشرفت بزيارة مكتبته العامرة، المحتوية على الذخائر الفاخرة، مما ينتفع به في الدنيا والآخرة، واجتمعت برفيقه صهره الشريف سيدي أبي بكر الكانوني، وبالمحب المحبوب الشريف الغطريف العلامة المولى أحمد بن المولى عبد الرحمان الإدريسي.

وقد فرحت بمعافاة الشيخ الكتاني المذكور مما كان ألم به من سقم، وقد ألقى على مسامعي ولده النابغة العبقري المولى عبد الكبير في تهنئتي بالقدوم للحضرة الفاسية وتهنئة والده المفدى بالعافية ما شهدت الفضيلة متجسدة فيه، والعبقرية ساجدة بين يديه، والدر الثمين ينثر من فِيهِ، وقد تعرض في هذه التهنئة لتقريظ نظمي للشفا للقاضي عياض[1] الذي يناهز ثمانية آلاف بيت ومطلعه :

حَمْداً لِمَنْ بِاسْمِهِ الأَسْمَى قَدِ انْفَرَدَا * وَاخْتَصَّ بِالمُلْكِ فَهْوَ لَمْ يَزَلْ صَمَدَا

---

[1] ـ هو نظم كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي أبي الفضل عياض يقع في 7747 بيتا، ويشتمل على خمسة أجزاء، كتب المؤلف على الجزء الأول بخطه رحمه الله أنه شرع في نظمه في 15 صفر عام 1344هـ ـ 4شتنبر 1925م، وكتب في الصفحة الأخيرة من الجزء الخامس، أنه فرغ من نظمه في 21 ربيع الأول عام 1350هـ.

وعموما فهو نظم فريد من نوعه، دالي القافية، من بحر البسيط، قال في مطلعها :

حَمْداً لِمَنْ بِاسْمِهِ الأَسْمَى قَدِ انْفَرَدَا * وَاخْتَصَّ بِالمُلْكِ فَهْوَ لَمْ يَزَلْ صَمَدَا

وقال رحمه الله بعد تمامه للنظم في آخر صفحة من الجزء الخامس :

بِحَمْدِ إِلاَهِي تَمَّ نَظْمِي لِلشِّفَا * وَأَرْجُو بِهِ مِنْ سَيِّدِ الرُّسْلِ جَائِزَهْ

وَمَا هِيَ عِنْدِي غَيْرُ نَظْرَةِ وَجْهِهِ * فَنَفْسِيَ إِنْ تَنْظُرْهُ لاَ شَكَّ فَائِزَهْ

ثم كتب تحتها بخطه الجميل : قال ناظمها عفا الله عنه، قد أجازنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالجائزة التي رجوناها منه، فرأيت وجهه الشريف في مشهد منيف، وهو يبتسم في وجهي عليه السلام، والحمد لله رب العالمين.

وقد تم تقريظ هذا الكتاب من طرف العديد من العلماء والأدباء، كالفقيه محمد بن أحمد المنوزي السوسي، والأستاذ المقرئ عبد الكريم بن محمد العلوي، والعلامة سيدي عبد الكريم بن العربي بنيس، وعبد الحي الكتاني وآخرين

عقدت في هذا البيت قولها الحمد لله المنفرد بالإسم الأسمى المختص بالملك الأعز الأحمى إلى آخره وعنونت النظم المذكور بمورد الصفا لمحاذات الشفا وقرظه حافظ العصر المحدث الشهير سيدي الشيخ أبو شعيب الدكالي رحمه الله بتقريظ يقول من جملته الحمد لله الذي جعل مؤلف الشفا مغربيًّا وناظمها مغربيًّا إلى آخر ما قال.

وقد توج هذا النظم بديباجة مهمة حضرة الشيخ الكتاني المذكور بما جعله مقدمة له في كراريس يحق بما جمعه فيها للنظم والمنظوم ولمؤلفيها التهاني.

وبعد موادعته تلاقيت معَ سيادة العلامة الجليل العارف بالله المولى عبد القادر بن المولى عبد السلام الوزاني[1]، وبِتُّ في روضه الأنيق، واجتمعت لديه بصهره ابن عمه شيبة الحمد الفقيه الشريف سيدي محمد بن الشاهد[2]، وبالشريف الأجل المولى أحمد ابن الطالب الطاهري، مع جماعة من الأحباب وخدَّام ذلك الجناب، زاد الله في معناهم،

وأصبح في يومنا يوم الأحد مبتهجا بما شاهدته في حاضرة فاس الغراء، فاجتمعت في هذا اليوم بمن رآني مصادفة أو سمع بقدومي حارصين على الحضور لديهم لمحلاتهم ولم يمكني إلا مساعدة السيد عبد الله[3] ابن الأخ المرحوم السيد الحاج محمد

---

[1] ـ عبد القادر الوزاني المسعودي المراكشي، من مريدي الطريقة التجانية، توفي بفاس عام 1374هـ ـ 1955م، وبها دفن

[2] ـ محمد بن الشاهد الوزاني، فقيه مشارك، له تآليف، توفي بفاس يوم الإثنين 27 ربيع الثاني عام 1391هـ ـ 21 يونيه 1971م، أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 2 : 611

[3] ـ عبد الله بن الحاج محمد سكيرج [ابن أخ المؤلف] من جلة رجالات الأسرة السكيرجية، وهو والد صديقنا الدكتور الأديب سيدي أحمد سكيرج [المدير التقني للموقع الإلكتروني المنسوب للعلامة سيدي أحمد سكيرج] توفي رحمه بموطنه بفاس في 10 محرم الحرام عام 1402هـ ـ 8 نونبر 1981م

سكيرج[1]، فتمت صلة الرحم به مع صهرنا الشريف المولى عبد العزيز الدباغ[2]، وكلفتهما بقضاء بعض الأغراض، وتشرفت بالاجتماع بقاضي السماط العلامة الأجل المولى إسماعيل بن المامون الإدريسي

[1] ـ المراد به الحاج سيدي محمد بن محمد بن عبد الرحمان سكيرج، أخ المؤلف من جهة أمه، ذكره العلامة سيدي أحمد سكيرج في كتابه قدم الرسوخ، فيما لمؤلفه من الشيوخ، عند ترجمته للسيدة أمه للا فروح التازي، فقال في حقه : والأخ الصالح السيد الحاج محمد بن الحاج محمد المذكور، وعنه تلقينا بعض الفوائد الصناعية، وقد استنبط مخاضة لبن بحركات دولابية لاستخراج الزبد في أقرب وقت، عمل على شكلها بإدخال تحسينات فيها بعض الأجانب في المخاضة الزبدية الموجودة الآن.إهـ.

عموما فقد كانت لهذا الرجل الفاضل محبة عميقة في أخيه [المؤلف] وكان هو الآخر يبادله نفس المحبة وأكثر، ولا يفوتني التنبيه أنه هو جد صديقنا وحبيبنا الدكتور السيد أحمد سكيرج، أحد أبرز أعلام الأسرة السكيرجية في هذا العصر وبدون منازع، وكيف لا فذلك الغصن من تلك الشجرة.

ولمزيد التوضيح فقد أصيب السيد الحاج محمد سكيرج بدماميل في رأسه، فنصحه بعضهم بالذهاب إلى حمة مولاي يعقوب، والإغتسال فيها بغية الشفاء من ذلك الضرر، فذهب إلى الحمة المذكورة، واستحم بها، ووالى جهة رأسه إلى القادوس الكبير الذي يخرج منه الماء إلى داخل الصهريج، ومكث على هذه الحالة مدة ساعة أو أكثر، إلى أن انهارت قواه وسقط مغشيا عليه وتوفي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته. وكان ذلك عام 1357هـ ـ 1938م .

[2] ـ بحكم المصاهرة التي وقعت بين الطرفين، حيث تزوج نجل المؤلف سيدي عبد الكريم سكيرج بالشريفة للا حبيبة بنت السيد عبد العزيز الدباغ، وهي زوجته الثانية، كما أنها أم أولاده سيدي عبد الحي وسيدي محمد علي، وأحمد رضا، والمكي، والطيب، وكان هذا بعد طلاقه من زوجته الأولى السيدة التجانية بنت سيدي عبد الوهاب سكيرج، التي هي والدة أبنائه الأوائل، سيدي محمد الحبيب، وسيدي محمد البشير، وسيدي محمد الكبير، وسيدي محمد الصغير.

ولا ننسى أيضا أن للسيد عبد العزيز الدباغ مصاهرة آخرى سابقة للعلامة سيدي أحمد سكيرج، وتتمثل هذه المصاهرة في زواجه بالسيدة رقية بنت الحاج سيدي محمد سكيرج، أخ المؤلف من جهة أمه، وتوفيت السيدة رقية المذكورة بتاريخ 17 شعبان عام 1385هـ ـ 11 دجنبر 1965م، وقد أنجبت له ثلاثة أولاد وهم، سيدي محمد العزيزي [المحافظ السابق لخزانة القرويين] وللا فاطمة، وللا حبيبة [زوجة سيدي عبد الكريم سكيرج]

ثم قصدت محل أخي من الرضاع العلامة العدل المبرّز بإدارة الأحباس بفاس أبي الفتح سيدي محمد[1] بن الخطيب المصقع المرحوم سيدي الطالب ابن عثمان ابن سودة[2]، فاجتمعت به بالإدارة المذكورة التي اتسعت بما أضيف لها من البناء الذي جعلها إدارة مهمة أحسن مما كان عهدي به في مبادئ التنظيم أيام كنت ناظرًا لأحباس العليا بها.

فاجتمعت بمحلّ اشتغاله بالعدل الثاني سلالة الشرف الباذخ، المولى الحسن بن محمد بن العباس العلوي ومن معهما من السادة، وقد دخل الأخ المذكور عليّ سرورا عظيمًا بما أخبرني به من أن أخاه الأديب اللوذعي الفقيه سيدي العربي إمام المسجد الباريزي بخير وعلى خير، وهنا قد اختصرت كثيرًا من زيارة الأحباب، وذكر أسماء من اجتمعت به منهم خشية الإسهاب في هذا الباب.

---

[1] ـ العلامة العدل سيدي محمد بن الطالب بن عثمان ابن سودة، أخو المؤلف من جهة الرضاعة، قال فيه في كتابه تاج الرؤوس، في التفسح بنواحي سوس :

وَأَخِي الشَّفِيقُ مِنَ الرَّضَاعِ مُحَمَّدُ الـ * ـسُّـودِي كَبِيرُ الفَـتْحِ فِـي الأَعْـيَـانِ
هُـوَ فِـي الفُهُومِ مُسَدَّدُ الآرَاءِ فِي * كَسْبِ العُلُومِ عَلَى اخْتِلاَفِ مَعَانِي
وَلَـقَـدْ تَـلَـقَّـانِي بِـكُـلِّ مَـبَـرَّةٍ * وَمَـسَـرَّةٍ فِـيـهَا كَـمَـالُ تَـهَـانِي
مَـا لِابْـنِ مُـقْلَةَ مِثْلُ خَـطِّ يَـمِينِهِ * وَبِـهِ مَعَانِي اللَّفْظِ فِـي لَمَعَانِ
وَالـخَـطُّ إِنْ يُـحْسَنْ يَزِيدُ بِـهِ وُضُـو * حُ الـحَـقِّ تَـحْـقِـيـقًا بِـلاَ إِمْـعَـانِ
وَإِذَا تَـكَـلَّمَ فِـي مَـجَالِسِ أُنْـسِـهِ * أَنْـسَـاكَ فِـي قِـسٍّ وَفِـي سُـحْبَانِ

[2] ـ الطالب بن عثمان بن سودة، والد إخوة العلامة سيدي أحمد سكيرج من جهة الرضاع، وهما السيدان محمد والعربي، توفي في حدود عام 1357هـ وقد رثاه المؤلف بقوله :

أَرَى المَوْتَ نَقَاداً عَلَى كَفِّهِ دُرٌّ * وَيَخْتَارُ مِنْهَا مَا غَلاَ عِنْدَهُ قَدْرُ

إلى أن يقول فيها :

وَلَـمْ أَرَى مِـثْلَ الـصَّبْرِ جَـلَّ ثَـوَابُهُ * لَدَى جَلَلٍ في مثْلِهِ ينبَغِي الصَّبْرُ
وَلَمَّا فَقَدْنَا السَّيِّدَ الطَّالِبَ الرِّضَى * فَـقَدْنَا لَـهُ صَـبْراً وَهَـلْ بَعْدَهُ صَبْرُ

وبعد صلاة العشاء اجتمعت بالفاضل المحترم العضو المعظم رئيس الغرفة التجارية بفاس سيدي محمد المرنيسي، وكان استدعانا لتناول العشاء لديه مع جماعة من الأعيان، ثم أصحبني معه على سيارته للإلتحاق بوفد الأعضاء القادمين من الرباط المتقدم ذكرهم، فركبنا في معيتهم بالعربتين الخاصتين بالوفد بعد الساعة العاشرة ليلا قاصدين الجزائر

فأصبح القطار بنا بمحطة وجدة، فوجدنا هناك قاضيها العلامة أبا الفتح السيد محمد العالم اليازنسني مع بعض الأعيان، مصحوبًا بما تشتهيه الأنفس صباحًا من حليب وتمر، وغير ذلك احتفالا بسيادة وزير العدلية ومن معه.

وبعد أداء صلاة الصبح هناك امتطينا متن القطار الجزائري بالعربتين المعينتين لخصوص الوفد الذي يترأسه الوزير المذكور. بعد توديع القاضي المذكور، وسار القطار والطريق مسرعة إلى أن وصلنا لمدينة تلمسان التي يقول فيها القائل وحق له أن يقول :

بَـلَدُ الـجِدَارِ وَمَـا أَمَـرَّ نَـوَاهَا * كَـلُفَ الـفُـؤَادُ بِـحُـبِّهَا وَهَـوَاهَا
يَا عَاذِلِي فِي حُبِّهَا كُنْ عَاذِرِي * يَـكْـفِيكَ مِـنْـهَا مَـاؤُهَا وهَـوَاهَا

وتلقانا بمحطتها جماعة من الأعيان تقديمًا لمراسم التهاني بالمرور على بلدتهم الطيبة، من جملتهم الفقيه المقدم السيد أحمد محداد، والمبجل المحترم السيد الحصار محمد، وغيرهما، فودعناهم وهم ينشدون :

فَلَوْ نُعْطَى الخيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا * وَلَكِنْ لاَ خيَارَ مَعَ الزَّمَانِ

فقلت لهم : لو كان عندنا خيار لأعطيناكموه، وقد كان فعل ذلك بعض الأدباء فإنه علم من المودعين له أنهم سينشدونه هذا البيت، فاستصحب معه خيارة واحدة، وهو نوع من القثاء المعروف، فلما أنشدوه البيت المذكور أخرجها لهم وقال : خذوا الخيار ولا تفارقونا، فاستحسنوا مستملحته.

ثمّ ودّعونا بما كان يودع جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي في بعض الآثار وهو قوله :

وَحَيْثُ اتَّجَهْتُمْ صَاحَبَتْكُمْ سَلاَمَةٌ * وَيَرْعَاكُمْ الرَّحْمَانُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

ونحفظ من البيت المتقدم قبله :

أُوَدِّعُكُمْ وَأُودِعُكُمْ[1] جَنَانِي[2] * وَأَسْكُبُ أَدْمُعاً مِثْلَ الجُمَانِ[3]

ثم سار القطار على طريقه حتى وصل قرب الساعة الواحدة نهارًا للبلدة الشهيرة بسيدي بلعباس[4]، وبمحطتها وجدنا جماعة من الإخوان ينتظروننا، أخص بالذكر منهم التاجر الأبر السيد صقال عبد السلام، أحد أعيان تجار هذه البلدة، مع أخيه السيد مصطفى وولده الأنجب السيد محمود وغيرهم، وطلبوا منا النزول عندهم، فواعَدناهم بعد قضاء المأمورية بالمرور بطرفهم، ثم ودعُونا والقطار متحرك للجد في المسير، حتى وصل للجزائر على الساعة العاشرة ليلا تقريبًا، فوجدنا بالمحطة جماعة من الذوات المحترمين في انتظار

---

[1] ـ أودعكم : بمعنى أجعل نفسي وديعة عندكم

[2] ـ الجنان : القلب

[3] ـ الجمان : اللؤلؤ، وحب يصاغ من الفضة على شكل اللؤلؤ

[4] ـ مدينة عتيقة، تقع شمال غرب الجزائر، وتعد من أجمل مدن البلد المذكور، سماها نابليون بـ [باريس الصغيرة]

قدوم وفدنا المَغرِبي لتقديم تحية القدوم بسلامة لسيادة وزير العدلية الذي تشرفنا بمرافقته.

وكان من جملة تلك الجماعة المنتظرة رئيس جمعية أوقاف الحرمين الشريفين الذي هو رئيس التشريفات المولوية الوزير الخطير الفقيه السيد قدور ابن غبريط، ونائب فرنسي عن الإقامة العامة بالجزائر، وآخر عن الديوان العسكري هناك، وكريم الأخلاق السيد الحاج الزواي، ونائب مدير إدارة الإذاعة الراديوفونيه المحترم السيد صالح أزروق وغيرهم،

ثم قعدوا بنا بعد التعرف بالجميع محل النزول بالنزل البديع الشهير بأليتي على نفقة الحكومة، فبِتنا به ليلة الثلاثاء، وفي صباحها قدم الوفد التونسي المؤلف من الأعضاء الشرفيين، الجلّة الأماجد، وزير القلم، الناشر من الأدب العلم، سيدي الرايس حميدة، ومستشار الحكومة التونسية العبقري أبي الفتح السيد الجنرال ابن الخوجة[1]، ونائب الصدر بها المحترم سيدي عبد العزيز الاخوه، والفاضل النبيل مدير الأحباس بها سيدي سعد عبد الله، ورئيس قسم التحرير بالإقامة بها أبي القاسم الهلالي الشريف، والأديب النابغة المدرس بجامع الزيتونة سيدي إبراهيم النيفر حفظهم الله،

---

[1] - محمد (فتحا) بن محمد البشير ابن الخوجة. أديب مؤرخ سياسي محنك. من مواليد تونس العاصمة في 6 فبراير 1869م- شهر ذي القعدة 1286هـ. تولى مناصب بارزة في الحكومة التونسية كان آخرها تعيينه واليا على إقليم قابس وجربة سنة 1920م. ثم نقل عاملا على الكاف سنة 1921م. ثم على بنزرت سنة 1925م. ثم مستشارا للدولة الحسينية بعد أن أحيل على التقاعد سنة 1934م. وهو المنصب الذي شغله إلى حين وفاته.

وله مؤلفات كثيرة منها: الرزمانة التونسية، في عدة أجزاء. تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد. الشيخ عمر والحاج فتوح. وهي محاورة بين هذين الشخصين حول آداب رمضان. وهي باكورة أعماله. وله أيضا الرحلة الناصرية. يدور موضوعها حول رحلة الملك محمد الناصر باي إلى فرنسا.

توفي بتاريخ 18 ذي الحجة 1361هـ- 27 دجنبر 1942م. أنظر ترجمته في "مشاهير التونسيين" 493-494. تراجم الأعلام 293-316. تراجم المؤلفين التونسيين 2: 259-261.

ثم صار الأعضاء الجزائريون يتواردون مثنى وفُرادى على النزل المذكور، ومن بينهم جليل القدر المحترم، شيخ الأعراب السيد بن كانا، والمحترم المبجل سيدي لاغا بنعودة الصحراوي[1]، وغيرهما من عمال الأيالة، وآغات وقضاة ومُفتين، وتراجمة محلفين وغير محلفين، وغيرهم من أعيان الموظفين والمستخدمين، وتجار وملاكين، ومحرري الجرائد الذين منهم خفيف الروح المهفهف السيد مامي إسماعيل[2] محرر النجاح ومديره، والعبقري الماجد الشريف سيدي عبد القادر القاسمي، محرر جريدة الرشاد ومديرها.

---

[1] ـ لاغا بنعودة الصحراوي، من أعضاء جمعية أوقاف الحرمين الشريفين، كان ضمن الوفد المرافق للعلامة سيدي أحمد سكيرج إبان رحلته الحجازية الأولى عام 1334هـ ـ 1916م، وقد وقفت على العديد من صوره الفوتوغرافية، وذلك ضمن الصور الملتقطة لأعضاء هذا الوفد، لاسيما بالعاصمة الفرنسية [باريس] وهو من حفدة الولي الصالح سيدي الصحراوي الإدريسي، دفين المدية،

[2] ـ مامي اسماعيل بن علاوة ابن عبدي بن الولي الصالح سيدي شبلي دفين قسنطينة، الكرغلي التركي أصلا. محرر جريدة النجاح، كاتب مقتدر، من مواليد مدينة قسنطينة في 18 أكتوبر سنة 1899م ـ 13 جمادى الثانية 1317هـ، تلقى تعليمه بجامع الزيتونة بتونس، فأخذ بها على نخبة من كبار علماء ذلك الحين كالعلامة عثمان بن المكي شارح التحفة، والشيخ صادق النيفر، والعلامة حسونة النيفر، والشيخ عبد الرحمن القيرواني، والعلامة الشهير سيدي معاوية التيمي،

قال عنه العلامة سيدي أحمد سكيرج في كتابه رياض السلوان فيمن اجتمعت بهم من الأعيان : ورجع لمقره [الجزائر] قرير العين بما حصل عليه من الفنون، فطلبته جماعة جريدة الصديق التي كانت تصدر بعاصمة الجزائر عضوا عاملا، اشتغل بها ما يقرب من السنة كاتبا مصففا في مطبعتها، فازدانت الجريدة به، وابتهج جمع جماعتها بوجوده،

ثم انتقل إلى جريدة الأقدام بالعاصمة، فأسس أول عدد صدر منها صحبة الأمير السيد خالد بن الأمير عبد القادر محي الدين، إلى أن انتقل الأمير المذكور للأسكندرية، فانتقل المترجم له لمسقط رأسه[قسنطينة] فاجتمع بالأديب الفاضل، النابغة المقتدر، السيد عبد الحفيظ بن الشيخ الهاشمي، سليل الولي الصالح سيدي علي بن عمر دفين طولقة ومؤسس زاويتها الشهيرة، واستعان به على القيام بشؤون إدارة جريدة النجاح التي كان أسسها المذكور بقسنطينة، وانحبس عن إصدارها نحو الستة أشهر، حتى اجتمع به فقوى على إصدار عددها الجمعي إلى أن صارت تصدر ثلاث مرات في الجمعة، وهي الآن بسببه في طور إصدارها يوميا، لما له من الباع في الكتابة والتحرير، وبث حبها في القلوب، حتى صارت تعد الجريدة الوحيدة في الوطن الجزائري بين عربية وفرنسية. أنظر رياض السلوان فيمن اجتمعت بهم من الأعيان، للعلامة سكيرج، رقم الترجمة 75

ولو سردنا أسماء الجميع لطال بنا الوقت الذي لا يسع بسط القول فيما هو المقصود من الجمعية وما راج فيها مما سنتعرض له بحول الله في القسم الثاني من هذه المسامرة. إهـ القسم الأول بحمْد الله.

القسم الثاني من شبه رحلة إلى الجزائر

بسم الله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى كل من وَالاه، وَالحمد لله والنصر والتمكين والفتح المبين، لمولانا أمير المؤمنين، زادَ الله في معناه.

أيها السادة قد تعين عليَّ الوفاء بما واعدت به المستمعين للقسم الأوَّل من شبه رحلة إلى الجزائر بنشر القسم الثاني منها، مع اقتصار القول في جمعية أوقاف الحرمين الشريفين المنعقدة فيها هذه السنة، ولا شكّ أن الوعد دين، والوفاء به مندوب أو فرض عين، وقد قيل :

مَا كَلَّفَ اللَّهُ نَفْساً فَوْقَ طَاقَتِهَا * وَلاَ تَـجُـودُ يَـدٌ إِلاَّ بِـمَا تَـجِدُ
فَـلاَ تـعِـدْ عِـدَّةً إِلاَّ وَفَـيْـتَ بِـهَا * وَاحْذَرْ خِلاَفَ مَقَالٍ لِلَّذِي تَعِدُ [1]

فنقول لما وَصلنا للجزائر ليْلا بِتنا بمحل نزولنا بالأوتيل المسمّى [باليتي] وَهو أعظم نزُل بالعاصمة المذكورة، وَأصبح في وجهنا يوم الثلاثاء، فطفقت أعضاء هذه الجمعية من كل ناحية تتوارد على المحل المعد للاجتماع، وسعادة رئيس الجمعية المحترم الوزير الفقيه السيد قدور ابن غبريط يقابل كل عضو بما هو معهود به من المجاملة الودية، حتى يتخيل لكل واحد منهم أنه المختص عنده بالوداد الخالص عن صفاء طوية، وقد احتشد الجمع الذي يزيد عددهم على الخمسين عضوا بما :

---

[1] ـ البيتان للإمام الشافعي رحمه الله

لَوْ ذَكَرْنَا اسْمَهُمْ لَطَالَ الكَلاَمُ * وَلِــكُــلٍّ جَــلَاَلَــةٌ وَاحْــتِــرَامُ
لاَ يُـوَفِّي شُـكْرِي لَـهُمْ بِثَنَاءٍ * فَـأَتَـيْنَا بِـمَا اقْـتَـضَاهُ الـمَقَامُ

وَقد أخبر الأعضاء الحاضرين بما سيتفاوضون فيه في اليوم الذي بعد هذا اليوْم المعد للاستراحة من وعثاء السّفر وزيارتهم في عشيته لسعادة الوالي العام الأمير آل ابريال، وعندئذ طلب العضو الأكرم شيخ الأعراب المحترم السيد ابن كانة أن يكون جميع الأعضاء في ضيافته مدة إقامتهم بالجزائر، وأكّد على رئيس الجمعية في ذلك، فساعده الرئيس على ذلك، إلا أن بعض الأعضاء القاطنين بالجزائر لم تسمح أنفسهم في عدم التشرف بزيارة محلاتهم وَلو مرَّة على الأقل، فأجابهم سيادته لما أرادوا مع تشكرات الأعضاء للجميع،

ثم ضرب سيادة الرئيس موعدا للأعضاء التونسيين والجزائريين والمغاربة ليجتمعوا عشية اليوم ليتوجهوا لزيارة سعادة الوالي العام، فحضر الجمْع في الوقت المعيَّن، وركبوا نحو أربع عشرة سيارة استلفتت أنظار الأهالي الذين طفقوا يتساءَلون عن ركابها في مسيرهم إلى قصره الفسيح الأرجاء الذي يسكنه، وكان في انتظارهم، فوجدوه مع حاشيته المحترمة، وعرّفه رئيس الجمعية بالأعضاء وَاحداً واحداً، ولكثرتهم اكتفى منهم بأن يسمي له كل وَاحد منهم نفسه لسعادته، وهو يبشر في وجوههم ويرحب بهم بما تركهم بعد مفارقته لاهجين بالثناء عليْه.

وَقد تفاوض معه سيادة الرئيس بمحضرهم في مأمورية هذه الجمعية ومقاصِدها بما وقع منه موقع استحسان، وأدخل على جميعهم سرورا بما بشرهم به من أنه مستعد لمده يد المساعدة، بكل ما يعتمدون عليه فيه ماديا وَأدبيا، ثم استدعى الجميع لتناول المشروبات المباحة لديه، بعد إتمام الأشغال التي قدموا لأجلها، فخرجوا من عنده وهم يتلون آيات الشكر على جميل مقابلتهم، ورجعوا لمحل نزولهم في تجلة واحترام.

وبعد تناول العشاء هناك ضرب لهم سيادة الرئيس موعد اجتماع على السّاعة العاشرة صباحا ليتوجهوا جميعا إلى إدارة الحكومة هناك لعقد الجمعية جلساتها في المحل المعد لهم بها. فركبوا في الوقت المعيّن إلى ذلك القصر الهائل، وَأخذوا فيه بالصّالون الكبير مقاعدهم، وافتتح سيادة الرئيس الجلسة بما تلاه على الأسماع الكاتب العبقري، ذو اللسانين، السيد أحمد الهواري من إنشاء الرئيس في الموضوع الذي سيطرح على بساط المذاكرة فيه، بعد إعادة ترحيبه بالسادة الأعضاء الذين أجابوا استدعاءه لهم، وأشار في ذلك إلى النقط المهمّة التي يريد من الأعضاء إبداء آرائهم فيها، وعلى الأخص مسألة الحج في هذه السنة.

وَقد نصب الآلة الراديوفونية قبالة الرئيس لإذاعة ما يلقي من مفاوضات وَخطابات حضرة مديرها الحازم الضابط السيد صالح ازْرُوق، ثم شرعوا في المفاوضة في ذلك حتى وقع منهم الإجماع على أولوية تأخير الحج في هذه السنة لعدم إمكان بابور ينقل الحجاج من مستعمرات الدولة الفخيمة وحماياتها للبقاع المقدسة، مع الخطورة المتوقعة بحراً وبراً، بما تنتفي معه الاستطاعة فيه للقيام بهذه الشعيرة الإسلاميّة على أتم وجه من الأمن على الحجاج ذهاباً وَإياباً،

مع إجماعهم أيضا على عدم سد الباب في وجه من أراد أن يحج في هذه السنة، على أن يتوجه من أي طريق اختارها لنفسه، والعهدة عليْه وحده فيما إذا أصيب بمكروه، لخروجه عن قبول نصيحة الجمعية التي اطلعت على صعوبة الحالة في حق المسافرين براً و بحراً، بفضل استطلاع رئيسها المحترم على ذلك من المصادر العليا.

وهنا تكلم سيادة وزير العدلية العلامة الشريف سيدي محمد بن العربي العلوي بما شفى به الغليل من النصوص الفقهية التي تؤيد ما أجمع عليه آراء الأعضاء في تأخير

الحج في هذه السنة، لما في ذلك من الخطر، وأيده فيما صدع به من حضر معه من أعلام الجمعية بما يثلج له الصدر.

وقد طالت المناقشة في ذلك نحو ثلاث ساعات، وقبل انفضاض هذه الجلسة الأولى استنشدني الرئيس باقتراح سعادة مستشار الحكومة التونسية السيد الجنرال بن الخوجة أبياتا كنت ارتجلتها باقتراح بعض أدباء الأعضاء فقلت :

سَأَلْتُ قَرِيحَتِي لِتجِيدَ شِعْرَا * وَلِـي شِعْرٌ غَـلاَ بِـالنَّقْدِ سِعْرَا
فَـقَالَتْ إِنَّ جَمْعِيَـةً كَـهَـاذِي * بِـهَا بَاهَى بَـهَاءُ الـشِّعْرِ فَـخْرَا
أَلَيْسَ لَـهَا الـتَّقَدُّمُ فِـي التَّرَقِّي * بِأَعْضَاءٍ عَلَوْا فِي المَجْدِ قَدْرَا
رَئِيسُهُمُ ابْنُ غَبْرِيطَ المُفَدَّى * لَـهُ قَدْ أَخْلَصُوا مَدْحاً وَشُكْرَا
وَهُمْ أَهْلُ العَلاَءِ مَتَى المَعَالِي * تُنَادِي أَيْنَ أَهْلِي لَسْتُ أُشْرَى
فَمَا مِنْهُمْ سِوَى عَـالٍ تَرَقَّى * إِلَـى رُتَبٍ بِـهَا قَدْ صَارَ بَدْرَا
وَمِنْ غَـالٍ عَـلاَ قَدْراً فَأَضْحَى * لَـهُ الـفَضْلُ الجَلِي دُنْيَا وَأُخْرَى
وَهُمْ يَسْعَوْنَ فِـي خَيْرٍ لِخَيْرٍ * وَمَـنْ يَسْعَى لِخَيْرٍ نَـالَ أَجْـرَا
وَهَلْ عَنْهُمْ أُحَدِّثُ مَنْ أَرَادُوا * يَرَوْا مَنْ فِي مَرَاقِي المَجْدِ قَرَّا
هُـمُ قَـدْ لُوحِظُوا فَحَظَوْا بِعِزٍّ * لَدَى مَنْ عَزَّ عِنْدَ النَّاسِ قَدْرَا
وَكَمْ مِـنْ حَاسِدٍ لَهُمُ تَصَدَّى * لِهَدْمِ صُرُوحِهِمْ فَـأَشَادَ ذِكْـرَا
فَنَـاوَاهُمْ بِـكَيْدٍ فِـي المَبَادِي * فَـعَـادَ بِفَضْلِهِمْ لَـهُـمُ مُـقِـرَّا
إِذَا حَـدَّثْتُ عَنْهُمْ قِـيلَ هَـذَا * يُـرَى مِنْهُمْ وَلَـكِنْ عَـدَّ بـرَّا
فَـأرشَدَ مَـنْ يضلّ إِلَـى هُدَاهُ * بِـهِمْ وَبِـهِمْ يَصِيرُ العَبْدُ حُـرَّا
فَـيَا لِـلَّـهِ جَمْعِيَة جَمِيعُ الـ * ـسَّـرَاةِ لَـهَا عَنَوْا جَهْراً وَسِـرَّا
وَمَـا مَقْصُودُهَا إِلاَّ اعْتِنَاءُ * بِـأَمْرِ الـحَـجِّ لِلحُجَّاجِ طُـرَّا

فَـتَـدْفَـعُ مَـا يَـسُـوءُهُـمُ وَتَـأْتِـي * بِـمَـا يَـغْـدُو بِـهِ الـعُـسْرَانِ يُسْـرَا[1]
وَيَـأْمَـنُ رَاكِبَ الـبَـحْـرِ اجْـتِـيَـازاً * لِـبَـرٍّ مَــنْ بِــهِ قَـدْ حَـلَّ بَـرَّا
وَيَـأْمَنُ فِـيهِ سَائِرُ مَنْ سَرَى فِي * طَـرِيـقٍ سَـهْـلُـهَا قَـدْ كَانَ وَعْـرَا
وَقَـدْ مَـدَّ الأَمَـانُ بِـهَا رِوَاقـاً * بِـفَـضْـلِ حُـمَـاتِـهَا بَـرّاً وَبَـحْـرَا
فَأَشْكُرُ سَعْيَهَا وَلِمَنْ سَعَى فِي * بُـلُوغِ القَصْدِ شُكْراً فَاقَ شُكْرَا
وَكَـمْ قَـصْـدٍ جَـمِيلٍ لِلجَمِيعِ الـ * ـثَّـنَـاءُ عَـلَـيْـهِ حَـقَّ فَـطَـابَ نَـشْـرَا
فَـيَـا أَعْـضَـاءَ جَـمْـعِـيَـةٍ كَـهَـذِي * يَـحِـقُّ لَـكُـمْ مَـدَا الأَيَّـامِ بُـشْـرَى

ثم جرت المفاوضة أيضا في شأن المسجد والمعهد المضاف إليه بباريز، مع ما أضيف لذلك من مداخيل الأوقاف والمصاريف اللازمة، وفي ميزانية السنة المقبلة مع أخبار الجمعية بما تفضلت به الدولة الفخيمة من ميزانية الحكومات الثلاثة في تعضيد الجمعية بتبرعات لها أهمية كبرى.

وفي ختام الجلسة الأخيرة استنهض الرئيس همم الأعضاء ببذل ما في وسعهم من التبرّعات المالية لجبر الخلل في الميزانية المشار لها. فتبرَّع في الحين كل منهم بما جادت به همته، فاجتمع من ذلك ما يزيد عَلى خمسين ألف فرنك.

وَفي عشية هذا اليوم اجتمع جميع الأعضاء بالأوتيل المذكور بقصد إجابة الجميع لدعوة المحترم الجنرال بيكان، التي أقامها احتفالا بهم، فتلقاهم بترحيب وبشاشة،

[1] ـ إشارة للحديث الذي رواه مالك في الموطأ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ : كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعًا مِنْ الرُّومِ وَمَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلْ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنْزَلِ شِدَّةٍ يَجْعَلْ اللَّهُ بَعْدَهُ فَرَجًا وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. انظر موطأ مالك [كتاب الجهاد] بَاب التَّرْغِيبِ فِي الْجِهَادِ، رقم الحديث 854

وهو بنفسه يقدم الحاضرين لمائدة المشروبات المباحة، والحلويات الجالبة للمسرة والراحة.

وبعد السّاعة الرابعة من يومنا هذا توجه جمع الأعضاء للقصر الضخم الساكن به سعادة الوالي العام الأمير آل ابريال الذي كان منتظرا الزيارة لهم في محله، فتلقاهم بالترحيب وعرفه سيادة الرئيس بهم واحدا واحدا، وهو مبشر في وجوههم، ويتفاوض مع كل عضو بما أدخل به السرور عليهم، وقد شرح له سيادة الرئيس ما أجمع عليه رأي الأعضاء وما تفاوضوا فيه من أوَّله إلى آخره، فاستحسن ذلك، وأخبره سعادته بأن الدولة لا تزال تساعد الجمعية حالا واستقبالا بما يعود به النفع على المسلمين من مستعمراتها وحماياتها في تسهيل الطرق وتنوير الأفق في التحصيل على أداء فريضة الحج على أحسن ما يكون، وقد أكَّد هذا الوعد المنجز أيضا للرئيس سعادة الجنرال بيكان الذي قصدت الجمعية قصره العامر إجابةً لدعوته، فوجدوه منتظرا فيه وفدهم عليه لزيارة حضرته.

ولقد مرَّت أيام إقامتنا بالجزائر البيضاء، في سرور وهناء، مع مذاكرات علمية، ومسامرات أدبية، بما لو قيّدنا ما راج من ذلك بين الأعضاء لأدّى ذلك إلى مجلد ضخم، فقد أنشدني رئيس الجمعية مرة قول القائل على لسان الدخان، وقد أدخل عليه نوعا من الإصلاح فقال :

أَحْرَقُونِي عَمْداً لِيَسْتَنْطِقُونِي * وَجَدُونِي عَلَى البَلاَءِ صَبُورَا
فَلِهَذَا رُفِعْتُ فَوْقَ الأَيَادِي * وَرَشَفْتُ[1] مِنَ المِلاَحِ الثُّغُورَا[2]

[1] ـ رشف الشيء : مصه بشفتيه
[2] ـ الثغور : جمع ثغر، وهو الفم والأسنان

فاقترح عليّ بهجة المجالس أبو الفتح بن الخوجة تشطيرها، فقلت ارتجالا :

أَحْرَقُونِي عَمْداً لِيَسْتَنْطِقُونِي * وَبِنُطْقِي أَحْرَقْتُ مِنْهُمْ صُدُورَا
وَأَنَا إِنْ أُحْرِقْتُ لَمْ أَخْشَ لَمَّا * وَجَدُونِي عَلَى البَلاَءِ صَبُورَا
فَلِهَذَا رُفِعْتُ فَوْقَ الأَيَادِي * وَنَشَرْتُ مِنَ البُخَارِ بُخُورَا
وَغَدَوْتُ لَدَى النَّدَامَى[1] عَزِيزاً * وَرَشَفْتُ مِنَ المِلاَحِ[2] الثُّغُورَا[3]

وما تشطيري لهما إلا تطييبا لخاطره حيث إني أكره شم الدخان، وإن كنت أحفظ فيه قول النابلسي[4]:

شَرِبْنَا دُخَانَ التِّبْغِ لاَ عَنْ مَوَدَّةٍ * لَهُ بَلْ هُوَ المَمْقُوتُ عِنْدَ ذَوِي الحِجَا
وَلَكِنَّ عِفْرِيتَ الهُمُومِ بِصَدْرِنَا * دَهَانَا فَدَخَّنَّا عَلَيْهِ لِيَخْرُجَا

[1] ـ الندامى : جمع نديم، وهو المصاحب على الشراب المسامر

[2] ـ الملاح : الحسان

[3] ـ هي أبيات قيلت على لسان السيجارة

[4] ـ عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي، محدث حافظ فقيه أديب مؤرخ مفسر صوفي، ولد بدمشق عام 1050هـ، وبها توفي عام 1143هـ، من مؤلفاته : تعطير الأنام في تعبير المنام، ونفحات الأزهار على نسمات الأسحار، وكشف الستر عن فرضية الوتر، ولمعان الأنوار في المقطوع لهم بالجنة والمقطوع لهم بالنار، وإيضاح الدلالات في سماع الآلات، وجواهر النصوص وشرح أنوار التنزيل للبيضاوي، ومناجاة الحكيم ومناغاة القديم، وغيرهم.
انظر ترجمته في فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 756 رقم الترجمة 415، سلك الدرر للمرادي ج 3 ص 30، الأعلام للزركلي ج 4 ص 32.

وقد كانت جرت فيه مذاكرة بيني وبين الأديب العبقري خزندار التونسي[1] منذ أعوام في محاضرة أدبية في نادي الترقي بالجزائر، إلى أن قال في مخالفة رأيي فيه من أبيات مطلعها :

دَخِّنْ لِتَجْلُوَ عَنْ فُؤَادِكَ غُمَّـةً * حِيناً وَلَوْ كَرِهَ الدُخَـــانَ سُكَيْرِجُ

وقد عقد معنى البيتين المذكورين جناب الأديب العبقري السيد إبراهيم النيفر في أبيات أطلعني عليها، وأبى نشرها تورعا من حموضة الأدب، مع أن الشعراء من دأبهم أنهم يقولون ما لا يفعلون.

وبعد أخذنا محل استراحتنا من وعْثاء السّفر جالت الفكرة في المسافة التي قطعناها مع طولها بالمذاكرات اللطيفة في الموضوعات العلمية مع جناب الوزير الشريف ابن العربي المذكور وبقية الوفد معه، فتذكرت بعض ذلك وقيدته، فكان من ذلك ما قلته في مخاطبته حين جلس بمقعد تناول الغداء في صالة الطعام بالقطار الذي كنا راكبين عليه، وقد صادف الحال جلوسي بمقعد خلفه قبالة وجهي، فقلت مخاطبا له في اتحاد المذهب واختلاف المشرب :

لاَ تُعْطِنِي بِقَفَـاكَ إِنَّنِي رَجلٌ * كَفَاكَ مِنْهُ إِذَا قَفَـاكَ نَـالَ هُدَى

[1] ـ محمد الشاذلي بن محمد المنجي بن مصطفى خزندار، شاعر وطني، يلقب في تونس بأمير الشعراء، من مواليد شهر محرم 1299هـ ـ دجنبر 1881م، ارتبط شعره بالأحداث الوطنية التي عاشها، فكان في أغلبها حماسيا مثيرا للنخوة والإعتزاز بالوطن، له ديوان شعر في جزءين، توفي بتاريخ 7 جمادى الأولى 1373هـ ـ 12 يناير 1954م أنظر ترجمته في مشاهير تونسيين، لبوذينة ص 488 ـ 489 . تراجم المؤلفيين التونسين، لمحفوظ 2 : 201 ـ 205

فقال مرتجلا :

شَأْنُ المُقَلِّــــدِ أَنْ يَقْفُو مُقَلَّــدَهُ * وَلَمْ يُــوَلِّ أَمَــامَ وَجْهِــهِ أَحَدَا

وَإجازته بالبيت المذكور منطوية على نكتة لطيفة، بالإشارة إلى توجه وجهته لمشرب السّلف بالعمل بالكتاب والسنة على وفق اعتقاده بين الخلف، فقلت :

عَفْواً فَإِنَّ الإِمَامَ إِنْ أَتَمَّ صَـلاَ * تَهُ فَيُقْبِل بِالوَجْهِ الَّذِي سَعِـــــدَا

فقام حفظه الله وأقبل بوجهه علينا، وَما زال متذكرا لأيام مرافقته لنا حيث كنت ناظرا أحباس العليا بفاس، وَهو عدل معي بها، وَلا زلت متشكرا لمحاسن أخلاقه إلى الآن:

وَلِـلَّـهِ أَيَّــامٌ مَـضَـتْ بِـاجْـتِمَاعِنَا * بِهِ تَرَكَتْ ذِكْراً جَمِيلاً مَدَا الدَّهْرِ
وَكُـنَّا بِـهَا فِـي حُسْنِ وُدٍّ تَـأَلَّفَتْ * بِـهِ أَنـفُسٌ مِـنَّا يَـحِقُّ لَهَا شُكْرِي

إلى أن انتقل من خطة العدالة بها إلى منصب القضاء، دام في ارتقاء، وقد أنشدنا في خطته وحسن سيرته إلى أن خطبته الوزارة العدلية :

وَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلاَّ لَهُ * وَكَانَ بِهَا صَالِحاً مُصْلِحَا

وَنص ما أنشدنا مما يتنزل على نفس المدة التي قضيتها في النظارة :

وُلِيتُ الحُكْمَ خَمْساً وَهْيَ خَمْسٌ * لَـعَـمْرُكَ وَالـصِّبَا فِـي الـعُـنْفُوَانِ
فَـمَا وَضَـعَ الأَعَـادِي قَـدْرَ شَانِي * وَلاَ قَـالُـوا فُـلاَنٌ قَـدْ رَشَـانِي

ولو بسطنا القول في كل مسألة جرت المفاوَضة فيها لطال بنا الوقت مع قصره وقصر باع من يريد تحصيله مع طوله في نظره، وأهم مسألة جرت أثناء جلسات الجمعية مسألة الحج في هذه السنة، حيث إن الاستطاعة بفقد الأمن في ركوب البحر مفقودة، وقد جرت الفتوى من قديم كما في المعيار وغيره بسقوط الحج عن أهْل المغرب إذا فقدت المراكب المأمونة الموصلة للبقاع الشريفة وخيف على الأنفس والأموال، ويعم هذا الحكم أمثالهم لكون الحج إنما يجب مرة في العمر على من استطاع إليْه سبيلا.

ثمّ بعد المبيت بالنزل المذكور قدم الوفد التونسي المؤلف من السادة الأمَاجد وزير السيف والقلم، الناشر من الأدب العلم، سيدي الرايس حميدة، والمبجل مستشار الحكومة أبي الفتح الجنرال ابن الخوجة، ونائب الصدر المحترم سيدي عبد العزيز الاخوه، والفاضل النبيل مدير الأحباس السيد سعد عبد الله، ورئيس القسم التحريري في الإقامة أبي القاسم الهلالي الشريف، والأديب العبقري المدرس سيدي إبراهيم النيفر، وَغيرهم من الأعضاء الجزائريين.

وقد أقيمت مراسم التهاني بسلامة قدوم هؤلاء الأعضاء بعضهم بعضا، وَفي طليعتهم سيادة رئيس الجمعية، الوزير الشرفي الفقيه سيدي قدور بن غبريط، وأخذ كل واحد حظه من الفرح بالاجتماع بأحبابه.

وفي أثناء الغذاء بعد انفضاض الجلسة وحضور الأعضاء استنصتهم الأديب الأحوذي، السيد الأخضري عبد العلي، كاتب المحكمة الشرعية بقسنطينية، وأنشد هذه القصيدة التي صفق لها المستمعون تصفيقا حادا، ونصها:

هَــذِي الـجَـزَائِرُ رَحَّـبَـتْ * بِـالـوَافِـدِيـنَ الأَكْـرَمِـيـنْ
بِالأَمْسِ كَانَ المَغْرِبُ الأَ * قْـصَـى مَـحَـطَّ الـرَّاحِلِينْ

وَالـيَـوْمَ تقتبـلُ الـجَـزَا * ئــرُ وَافِـدِيـهَا الأَقْرَبِـيـنْ
وَالـسَّـادَةَ الـفُـضَـلاَءَ أَعـ * ـيَـانَ الـشَّـمَالِ الـمُـشْرِقِينْ
بِـيـضُ الـوُجُـوهِ كَـرِيـمَـةٌ * أَحْسَابُهُمْ فِـي الـمُعْرِقِينْ
مِـنْ كُـلِّ شَـهْـمٍ سَـيِّـدٍ * تَجِدِ الـمَعَالِي لَـهُ قَرِينْ
جَـمَعَ الـفَـضَائِلَ وَالـنُّهَى * وَالسُّؤْدَدَ الغَالِي الـثَّمِينْ
مَــا فِـيـهِـمُ إِلاَّ كَـرِيـ * ـمٌ يَـنْـتَـمِي لِلصَّالِحِيـنْ
وَابْــنُ الأَكَــارِمِ فَـضْـلُـهُ * قَــدْ بَـذَّ فِـيهِ الأَوَّلِـيـنْ
أَكْرِمْ بِهِمْ مِنْ وَافِــــدِيـ * ـنَ وَبِـالـجَزَائِرِ كُـلَّ حِيـنْ
لِـلَّـهِ هَـذَا الـجَمْعُ فِـي * أَعْـمَـالِـهِ غَـيْـثٌ هَـتُـونْ
جَـمْعٌ لِفِعْلِ الـخَيْرِ وَفَّـ * ـقَ نَـفْـسَـهُ مَــرَّ الـسِّـنِينْ
يَــرْتَـادُ أَعْـمَـالَ الـصَّـلاَ * حِ وَيَرْتَئِي الـرَّأْيَ الـمَتِينْ
وَيَـسِـيـرُ سَـيْـرَ مُـوَفَّـقٍ * فِي الصَّالِحَاتِ لَهُ شُؤُونْ
يَـا أَيُّـهَا الـجَمْعُ الـمُبَا * رَكُ كُنْتَ خَيْرَ الـسَّابِقِينْ
قُـصَّـادَ بَـيْتِ الـلَّـهِ أَصْـ * ـبَحْتُمْ لَـهُمْ خَيْرَ الـمُعِينْ
يَـسَّـرْتُـمُ الـعُـسْرَ الَّــذِي * قَدْ كَـانَ صَعْباً مُذْ سِنِينْ
بِـــعِـنَــايَـةٍ وَبِــهِــمَّــةٍ * وَعَـزِيـمَـةٍ لاَ تَـسْـتَـكِـينْ
وَالـمَرْءُ إِنْ لَـمْ يَسْعَ فِي * خَيْرٍ يَـكُنْ فِـي الخَاسِرِينْ

إلى آخر ما قال بما شكره عليه سعادة الرئيس المفضال، وذكر أنه وردت عليه

ثم وردت عليه قصيدة من جناب الأديب إمام مسجد الجزائر ابن بشير الرابحي، متوجة أبياتها بحروف جمعية أوقاف الحرمين الشريفين، وقد تناولها من يده جناب وزير العدلية، وألقاها نيابة عن ناظمها بما اكتسبت به تفوّقا على غيرها بإنشاده لها، يقول في أولها :

جَـادَ الإِلَـهُ فَـسَادَ الأَمْـنُ وَانْـبَعَثَتْ * أَشِعَّةُ الـفَضْلِ بَعْدَ اليَأْسِ وَالخَطَرِ
مِـنْ كُلِّ شَـهْمٍ عَـظِيمٍ فِـي مَـجَادَتِهِ * لَـهُ العُلَى قَـدَّمَتْ مَا رَامَ مِـنْ وَطَرِ
عَـلَتْ مَـكَانَـتُهُمْ فِـي كُـلِّ مَـنْقَبَةٍ * مِـنْ كُـلِّ قُـطْرٍ بَـدَتْ أَهِلَّـةُ الـظَّفَرِ
يَحْمِي حِمَاهُمْ رَئِيسُ الوَفْدِ تَكْلَؤُهُمْ * عَـيْنُ العِـنَايَةِ مِـنْ بُؤْسٍ وَمِنْ ضَـرَرِ
تَـجَـمَّلَ الـكُـلُّ بِـالـعِرْفَانِ فِـي أَدَبٍ * مُـنْذُ الـحَدَاثَةِ حَـتَّى حَـالَـةِ الـكِبَرِ
حَـمْداً حِمَى الحَرَمِ المَيْمُونِ طَلْعَتُهُ * لِـلَّهِ مِـنْ سَـادَةٍ فِـي الـعَصْرِ كَالغُرَرِ

إلى أن قال :

يَـا نُـخْبَةً مِـنْ سَـرَاةِ الـقَوْمِ تَـجْمَعُهُمْ * رَوَابِــطُ الـخَيْرِ وَالإِحْـسَـانِ لِـلبَشَرِ
نِـعْمَ الـصَّـنِيعُ الَّـذِي قُـمْتُمْ بِـوَاجِبِهِ * نَحْوَ بَنِي الدِّينِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرِ
إِنَّ الــوُفُــودَ وَإِنْ جَـلَّـتْ مَـقَاصِـدُهاَ * فَـوَفْدُكُمْ بِـاحْتِرَامِ الـشَّأْنِ مِنْهُ حَرِي
فَـلْـيَهْنِ وَفْـدُكُـمُ فِــي كُـلِّ مَـرْحَلَةٍ * وَلَـيْسَ جَـمْعُكُمُ الـصَّحِيحُ فِـي خَـفَرِ

ولقد مرت أيام إقامتنا بالجزائر في هناء وسرور وكنا في ضيافة خاتم قطره شيخ الأعراب السيد ابن كانة، وتكفل بتحضير الغداء والعشاء لسائر الأعْضاء في النزل الذي نحن نازلون فيه، وَقد زاحمه في استدعائهم للإكرام من استعطف خاطره لضيافتهم، ذو الهمة العالية، والنفائس الغالية، السيد الحاج الزواي، صاحب معمل الطيب الشهير، وأتحف جلهم بقوارير الطيب على اختلاف الأنواع، مع حِككٍ من الند وَالعنبر والمسك، ونحو ذلك بما لا زال شكرهم عليه يتلى.

وَأقام أيضا احتفال عشاء لجميع الأعضاء ليلة السّفر حضرة الملاك الشهير السيد الطيّار، في داره البديعة المنظر، البارزة بيوتها في صورة بيوت باخرة فاخرة، وَما قصر في الإكرام، بما يُعَدّ من قبيل مسك الختام.

ثم أفضى رئيس الجمعية بالتشكرات الخالصة للسادة المجيبين بالحضور لانعقاد الجمعية في هذه المرة بالجزائر، وعلق أمله على إجابتهم للجلسة المقبلة التي ستكون بالخضراء بحول الله، وأعلمهم بتمام مأموريتهم ليرجع كل واحد منهم إلى محله، وَبعد انفضاض المجمع صدح بلبال القريحة في توديع محبنا وزير القلم، رفيع الهمم، سيدي حميد الرايس ليبلغ تحياتنا الخالصة لأحبابنا الخاصة من أهل تونس، بعد أداء مراسم الاحترام لجلالة سيدنا باش باي فقلت :

عِنْدِي مِنَ الشِّعْرِ رَايَاتٌ فَأُنْشِرُهاَ * وَلَمْ أَزَلْ بِجُيُوشِ الشُّكْرِ أَنْصُرُهاَ
مِنْهَا الثَّنَاءُ الَّذِي عَلَيَّ أَوْجَبَهُ * حُبِّي لِتُونِسَ مِنْ نَعْمَاءٍ أَذْكُرُهَا
لِلَّهِ مِنْ بَلْدَةٍ تَسْمُو بِقَاطِنِهَا * أَهْلِ المَزَايَا الَّتِي مَا كُنْتُ أُحْصِرُهاَ
كَفَى بِأَنَّهُمُ مِنْهُمْ أَخُو الرُّتَبِ * الَّتِي سَمَتْ وَهْوَ فِي العَلْيَاءِ مَفْخَرُهَا
وَهْوَ الرَّئِيسُ وَزِيرُ السَّيْفِ وَالقَلَمِ * الأَعَلَى وَمَوْرِدُهَا الأَحْلَى وَمَصْدَرُها
السَّيِّدُ الأَحْمَدُ الأَرْضَى ابْنُ رَائِسِهِمْ * مُحْيِّي القُلُوبِ بِمَا غَدَا يُنَوِّرُهَا
أَعْلاَمُهُ يَحْسُدُ النَّسِيمُ رِقَّتَهَا * فَصَارَ بِاللُّطْفِ فِي الأَكْوَانِ يَنْشُرُهَا
ذُو هِمَّةٍ لَمْ تَدَعْ شَيْئاً يَهمُّ بِهِ * إِلاَّ قَضَتْهُ وَبِالتَّقْوَى يُطَهِّرُهَا
فَاعْرِفْ بِهِ فَهْوَ مُسْدِي الخَيْرِ مُذْ نَشَأَ * وَلاَ تَرَى أَحَداً حُسْنَاهُ يُنْكِرُها
إِنِّي لَأَشْكُرُهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ * لِي وَالمَحَبَّةُ لَمْ يَزَلْ يُقَرِّرُهَا
وَالحُبُّ سِرٌّ سَرَى فِي النَّفْسِ يطلقُهَا * مِنْ قَيْدِهاَ وَلَرُبَّمَا يُؤَسِّرُها
لِذَاكَ فِي وِدِّهِ لاَ زِلْتُ مُنْبَسِطاً * وَفِيهِ آيَةُ أَشْعَارِي أُكَرِّرُهَا
يَا حَامِلَ القَلَمِ الَّذِي بِشَوْكَتِهِ * حَمَى العُلَى ولَهُ المَوْلَى مُسَخِّرُهَا
لاَ زَالَ يَخْدمُكَ السَّعْدُ المُؤَيَّدُ فِي * عِزٍّ بِرَغْمِ الَّذِي نَعْمَاكَ يَكْفُرُهَا

أَرْجُوكَ تُنْهِي تَحِيَّاتِي لِحَضْرَةِ مَوْ * لاَنَا الرِّضَى بَاشَ بَايَ دُمْتَ تَحْضُرُهَا
وَاللَّهُ يَحْفَظُهُ مَعَ الْمُحِبِّ لَهُ * وَكُلِّ مَنْ لِعُلاَهُ دَامَ يَشْكُرُهاَ

وَفي الليلة التي أقام فيها السيد الطيّار احتفاله لأعضاء الجمعية استودع بعْضهم بعضا، وكل من الوداع في تشَكٍ، وما أمرّ ساعة الوداع لدى رقيقي الطباع. فتلقاهم بوجه بشوش، مظهرًا سروره باجتماعه بهم، وعرفه سيادة رئيس جمعيتنا المحترَم الوزير السيد قدور بن غبريط بالأعضاء واحدا واحدا، وَيصافحه بيد المودة، ويخاطبه كل واحد بما يظن أنه هو المقصود من هذه الزيارة عنده، ثم دخل بهم لقاعة الاحتفال لتناول المشروبات وَالحلويات البديعة الشكل، في مذاق يكاد أن تكون من نوع لم نر مثله من قبل،

وَتعَرَّفَ الأعضاءُ بمن حضروا هناك من حاشيته وسعادته، يتكلم مع هذا ثم هذا إلى أن أقبل عَليَّ آخذًا يد الرئيس لناحية جلوسي، فقمتُ إجلالا له، فتفاوض معي بواسطته، وَسألني عن المواضيع التي أطرُق بابها بقرض الشعر، فقلتُ : أقول منه ما يؤلف بين القلوب، ويتوصل به للمطلوب، فاستحسن ذلك جدا، ووقع منه موْقعا، وهو ماسك بيدي يريد زيادة المفاوضة، إلى أن شغله بعض الجنرالات عني بمجادة خاصة، فتسللت من بينهما إلى المحل الذي كنت جالسا به،

ثم رجع إليَّ بعد ذلك قابضا بيد النابغة أديب كتاب الحضرة الشريفة، ذي اللسانين، السيد الحاج أحمد الهواري، الذي هو أحد أعضاء الجمعية ليترجم بيني وبينه، فقمت إجلالا لسعادته، وأفاض القول معي إلى أن سألني عَن موجب شهرتي بين أهل إفريقيا الشمالية والجنوبية، فأخبرته بالرابطة التي ربطت بها قلوب الإخوان، بالإرشاد إلى سلوك طريق العرفان، وَإقبالهم على تآليفي منذ زمان، مع تشوّفهم لما أؤلفه إلى الآن، ثم واعدني بزيارة خصوصية إن عادَ للمغرب،

ثم قدَّمني لمائدة الحلويات، وَناولني منها نوعا لطيفا، قضت الشهية بأكله وشربه، وإن كنت مريضا بالداء السكري الذي ابتلى به كثير من الناس القليلي الحركة أو الكثيري الترفه في المأكولات، وبالأخص الحلويات، وَهذا الداء قليل النفس إذا قاومه المبتلى به ثم غفل عنه رجع إليْه، ولم أجد أنجع فيه وأنفع في مقاومته من الحمية عن تناول ما فيه نشا وحلاوة، ويفيدُ فيه الجوع خصوصا الصوم،

وقد أفادَني في معالجته صاحب المجادة، بطل الجنوب الباشا الأسعد سيدي الحاج التهامي المزواري[1]، بأنه جرب في تخفيف وطأته الحركة، وقد قيل كل دواء يخطئ ويصيب إلا دواء الحركة فإنه مصيب، خصوصا إذا كانت برياضة بدنيّة بالمشي على الأقدام صباحا مساءً، وقد جربت ذلك فوجدته نافعا ليعمل بمقتضى ذلك من هو مصاب به إن أراد الشفاء، فهو من المجربات النافعة،

---

[1] ـ التهامي بن محمد المزواري الأكلاوي، باشا مدينة مراكش، توفي في 9 رجب 1375هـ-21 فبراير 1956م. ودفن بضريح الشيخ سيدي محمد بن سليمان الجزولي بحومة روض العروس بمراكش،

وكانت تجمع بينه وبين المؤلف صداقة مثينة، وقد مدحه بقصائد عديدة رائعة، منها قوله في مطلع إحداها :

خَلِيلِيَ إِنْ عَرَّجْتَ يَوْماً عَلَى الحَمْرَا * وَنِلْتَ مِنَ السَّرَّاءِ مَا كَشَفَ الضَّرَّا

إلى يقول فيها :

هُـمُ آلُ مِـزْوَارٍ بِأَوْجِ العُلاَ ارْتَقَتْ * مَعَالٍ بِـهِمْ بَاهَتْ وَزَادَتْ بِهِمْ فَخْرَا
وَبَيْنَهُمُ البَاشَا التُّهَامِي الَّذِي سَمَتْ * مَرَاتِبُـهُ إِذْ نُـورُهُ أَخْـجَلَ الـبَدْرَا
لَإِنْ كَانَ مِثْلَ البَدْرِ فِي رِفْعَةٍ وَفِي * سَنَـاءٍ فَلَيْسَ الـبَدْرُ يُدْرِكُهُ قَدْرَا
وَإِنْ قُلْتَ إِنَّ البَحْرَ يَحْكِيهِ جُودُهُ * تَجِدْ فِـي وُجُودِ جُودِهِ جَاوَزَ البَحْرَا

إلى أن قال في ختامها :

وَقَـدْ خَلَّدَ الـفَخْرَ الـكَبِيرَ لِقَوْمِهِ * بِمَا شَـادَهُ فِـي كُـلِّ قُطْرٍ بِـهِ مَرَّا
وَقَـدْ زَانَ شِعْرِي بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ إِذْ * تَسَامَى وَفِيهِ المَدْحُ قَدْ زَيَّنَ الشِّعْرَا
وَيَا رُبَّ شِعْرٍ فَاقَ سِعْراً بِمَا انْطَوَى * عَـلَيْهِ بِمَنْ فِي مَدْحِهِ جَاوَزَ الشِّعْرَى

أنظر ترجمته في الأعلام، للزر كلي 2: 89. إتحاف المطالع، لابن سودة 2: 552. معلمة المغرب 2: 619-621. موسوعة أعلام المغرب 9: 3309.

وإنه ليسرّني أن أخبر السّامعين الكرام بأني عثرت على دواء مهم لمعالجة الداء المشهور بالضيقة والنهجة وعُسر التنفّس بما كاد أن يكون دواء من أدوية عيسى عليه السّلام، وقد كتبتُ في شأنه لكلية الطب، وعسى أن يعم النفع به للمصابين بذلك عافاهم الله،

وبعد أن قضينا سويعة تعد من سويعات السرور من العمر بهذا الاحتفال النفيس، استودعنا سعادة الجنرال المذكور، وخرج الكل من عنده ولسانهم رطبة بالثناء عليه.أهلا بكم،

وَفي صباح يوم السّبت خرج سيادة الرئيس لساحة الاستقبال من النزل الذي نحن نازلون به، وودع الوفد المغربي وبعْض الأعضاء المرتحلون، فسافرنا على متن القطار العائد للمغرب، غير أني عرجت على وَهران، وَعلى مدينة سيدي بلعباس، فأقمت بالأولى يوما كاملا بليلته لدى أهل محبُوبنا المرحوم المفتي العلامة مولاي الحبيب بن عبْد المالك، الذي يحتاج إلى تنويهنا به لما له من الفضل المشهور به عند الخاص والعام،

وهو الذي كان سببا في تأليف رحلتنا إلى وهران عام 1329هـ حين شددت الرحلة لزيارته، وطبعت في العام المذكور، وسميتها بالرحلة الحبيبية[1]، نسبة إلى اسْمه

---

[1] - إشارة لرحلته المسماة بـ الرحلة الحبيبية الوهرانية، الجامعة للطائف العرفانية، طبعت بخط المؤلف بالمطبعة الحجرية بفاس عام 1329هـ 1911م، في 142 صفحة، ثم أقدمنا ولله الحمد بعد ذلك على تحقيقها وطباعتها وإخراجها للقراء في حلة قشيبة، وتحتوي هذا التأليف على تراجم مفيدة لبعض الأعلام الذين اجتمع بهم المؤلف في رحلته المذكورة، مع فوائد وفرائد كثيرة، وتقاييد وقصائد وأشعار بديعة، ولهذا قال فيها مقرظها العلامة الأديب مولاي عبد السلام بن محمد العلوي :

إذا رحلة الشيخ العياشي لم تكن * لديك فقد أغنتك رحلة نجله
جناب أبي العباس أحمد ذي العلا * سكيرج فرع طيبه طيب أصله
من الخزرج الشم الكرام نجاره * ومن أسرة الأنصار أسرة نسله

الشريف، وهو الذي نوط باسمه بالترحم عليْه في الجلسة الأخيرة بين الأعضاء الذين توفاهم الحق في بحر السنة الماضية، وَقدمت بنفسي لوهران بقصد تعزية أهْله حيث إنهم أحبابنا، وقد فقدنا من بينهم أعز الأحباب، وَإنا لله وإنا إليه راجعون.

وَهنا أبيات وقصائد في توديع جل الأعضاء وشكر عواطفهم بين الأحبَّاء اقتصرنا على ما ذكرناه من ذلك.

فَلْيَهْنَ وَفْدُكُمْ فِـي كُـلِّ مَـرْحَلَةٍ * وَلَـيْسَ جَمْعُكُمُ الصَّحِيحُ فِـي قَـفَرِ
شُكْرِي إِلَيْكُمْ عَلَى طُولِ المَدَى أَبَدَا * وَهَـلْ يُـقَـاسُ بِـبَحْرٍ وَابِـلُ الـمَطَرِ
رَأَتْ فَرَنْسَا جَمِيلَ الصُّنْعِ مُرْتَبِطاً * بِصِدْقِ إِخْلاَصِكُمْ فِـي جَامِعِ السِّيَّرِ
يُـعَاضِدُ الـكُلَّ عِـلْمٌ فِـي مُهِمَّتِهِ * لاَ يَنْتَهِي الـعَزْمُ دُونَ مَبْلَغِ الـوَطَرِ
فَـأَيَّدَتْكُمْ وَأَعْلَـتْ كَـعْبَ مَـجْدِكُمُ * رَغْمَ الظُّرُوفِ الَّتِي تجَاحُ كُلَّ سَــرِي
نُـنْهِي إِلَـيْكُمْ قَـرِيضاً قَـالَ قَـائِلُهُ * أَهْـلاً وَسَـهْـلاً بِـأَهْلِ العِلْمِ وَالأَثَـرِ

وقلت في توديع حامل راية الأدب أبي الفتح ابن الخوجة المذكور :

اسْقِيَانِي وَحْـدِي وَلاَ تَشْرَبَاهَا * مُـذْ دَعَانِـي الـهَوَى لَـهَا فَدَعَاهَا
إِنَّـهَا قَـدْ شَـفَتْ غَلِيلَ عَـلِيلِي * وَخَلِيلِي عَـنْ شُرْبِهَا مَا تَلاَهَى
وَإِذَا مَــا الــسُّـرُورُ آيَــتُـهُ لَــمْ * تَـعْلَـمَاهَا فَـقَدْ دَرَى مَــنْ تَلاَهَا
عَـاطِيَانِـي جَـهْراً وَلاَ تعـذلاَنِـي * وَاعْـذُرِ النَّفْسَ فِـي بُلُوغِ مُنَاهَا
وَامْزُجَاهَا أَوْ لاَ فَـإِنِّي بِـهَا مَـا * كُنْتُ عَـمَّنْ عَـنْ شُرْبِهَا يَتَنَاهَى
كُــلُّ شَــيْءٍ لَـهُ تَـنَاهٍ وَعِـنْدِي * مَـا أَرَى لِـي سُـرُورُهاَ يَتَنَـاهَى
هِـيَ مِـنْ خَمْرَةِ الوِدَادِ الَّذِي نَرْ * عَــى مَرَاعِيـهِ لاَ أُرِيـدُ سِـوَاهَا
سَلْ أَبَا الفَتْحِ ذَا الوِدَادِ الحَقِيقِي * كَـمْ شَـفَى أَنْفُساً بِــهِ وَسَبَـاهَا

هُـوَ رَاعِـي الـعُـهُودَ سِرّاً وَجَـهْراً * وبِــهِ حُــقَّ فِـي الـوُجُـودِ يُبَاهَى
هِـمَـمٌ عِـنْـدَهُ تَـزِيـدُ مَـعَـالِـيـ * ـهِ ازْدِهَـاءً بِــهِ وَلَيْسَتْ تُضَاهَى
جَـالَ فِـي مِيدَانِ السِّبَاقِ لإِحْرَا * زِ مُـنَـاهُ فَـنَـالَ أَقْـصَـى مَـدَاهَا
لاَ يُـجَارِيـهِ فِـي الَّـذِي يَبْتَغِيهِ * أَحَـدٌ قَــدْ سَمَاالعُلَى وَعَـلاَهَا
هُــوَ بَــدْرٌ بَــدَا بِـأُفْقِ الـمَعَالِي * أَخْجَلَ الشَّمْسَ نُورُهُ فِي ضُحَاهَا
فَـسَلُوا عَـنْـهُ قُـطْرَهُ وَسِـوَاهُمْ * فَـعَلَيْـهِ الـعُلَى تَــدُورُ رَحَـاهَـا
وَلَعَمْرِي مَـا لاِبْـنِ خُوجَةَ مِثْلٌ * عِـنْـدَ مَــنْ طَلَّبُوا لَــهُ أَشْبَاهَا
دَامَ مَلْحُوظَ مَنْصِبٍ وَلَـهُ فِـي * رُتَــبِ الـعِـزِّ دَائِـمـاً مُنْتَهَاهَا
أَيُّهَا الـشَّهْمُ الـمُسْتَشَارُ الَّذِي يَعْـ * ـنُـو لَـهُ مَـنْ عَـلاَ العُلَى وَارْتَقَاهَا
لِـتُـبَلِّغْ مِـنِّـي الـسَّـلاَمَ لِـمَـوْلاَ * يَ الرِّضَى البَايِّ[1] زَادَهُ اللَّهُ جَاهَا
وَالْـتَمِسْ مِنْهُ لِي الدُّعَاءَ فَإِنِّي * بِـدُعَـاهُ تَــنَـالُ نَـفْـسِي مُـنَـاهَا
وَعَـلَى سَائِرِ الـمُحِبِّينَ فِـي تُـو * نِــسَ نَـالَـتْ نُفُوسُهُمْ مُبْتَغَاهَا
هَــذِهِ مُـنْـيَتِي الَّــتِي أَتَـرَجَّى * مِـنْـكَ تَبْلِيغَهَا فَــلاَ تَـنْـسَاهَا

وَفي صباح يوم السبت ركبت مع بقية الوفد المغربي قاصدين الديار المغربية، غير أني عرجت على وَهران لتعزية أهل العضو المرحوم مفتي وهران العلامة سيدي الحبيب

[1] - المراد به أحمد بن علي بن حسين باي الثاني، بويع له بعد وفاة ابن عمه محمد الحبيب باي، كان عهده مليئا بالأحداث والوقائع والمظاهرات المناهضة للإستعمار الفرنسي، توفي بتاريخ 5 جمادى الثانية 1361هـ ـ 19 يونيه 1942م، أنظر ترجمته في مشاهير التونسيين، لمحمد بودينة ص 85 ـ 86

بن عبْد المالك[1]، فوجدت هناك ينتظرني محل الولد البار السيد الصقال عبْد السّلام، حيث واعدته بزيارة محله ببلدة سيدي بلعباس، فتوجهت صحبته إليها وأقمت بها يومين بمحل إكرام لديه وإخوته وإخوانه،

وَأجبت دعوة قاضيها المحترم الوجيه السيد شعيب بن الطالب، وَدعوة مفتيها الفقيه سيدي البدراوي بن محبنا المرحوم العلامة السيد المنوّر، الذي كنت أجبته عن

---

[1] ـ - الحبيب بن عبد الملك. فقيه فاضل. من خيرة علماء وهران. وهو مفتيها. ومقدم الطريقة التجانية بها. كانت تربطه بالعلامة سكيرج صداقة وأخوة متينة. كما أنه استدعاه لزيارته بمدينة وهران سنة 1329هـ- 1911م. فلبى العلامة سكيرج الدعوة وألف حول هذه الزيارة رحلة شيقة سماها : الرحلة الحبيبية الوهرانية.الجامعة للطائف العرفانية.

وللمؤلف قصائد كثيرة في مدح هذا الرجل الذي كان من عداد أصدقائه الكبار، منها قوله في إحداها :

بِاللَّهِ يَـا قَاصِدِينَ قُطْرَ وِهْـرَانِ * حَيُّوا الحَبِيبَ الَّذِي ثَوَى بِوِهْرَانِ
فَلِي بِـهِ كَلَفٌ قَـدْ زَادَنِـي شَغَفاً * بِـهِ فَـصِرْتُ أُحِـبُّ كُـلَّ وِهْـرَانِ
هُوَ الحَبِيبُ ابْنُ عَبْدِ المَالِكِ العَلَوِي * وَإِنَّـنِي عَـبْدُهُ فِـي نَـاسِ وِهْـرَانِ
إِنِّـي وَإِنْ كُنْتُ فِـي فَـاسٍ فَفِي خَلَدٌ * قَـدْ طَارَ مِنِّي إِلَى سُكَّانِ وِهْرَانِ
جِسْمِي بِفَاسٍ وَقَلْبِي حَلَّ بَيْنَهُمُ * مُـخَيِّماً عِـنْـدَ أَحْبَابِي بِـوِهْرَانِ
وَلاَ عَـجِيبٌ إِذَا أَقَـامَ عِـنْدَهُمُ * فَـإِنَّـهُمْ أَهْـلُ عِـرْفَانٍ بِـوِهْرَانِ
بِفَضْلِهِمْ عَرَّفُونِي فَاكْتَسَبْتُ بِهِمْ * لِـلَّـهِ مَـعْـرِفَـةً بِـأَرْضِ وِهْـرَانِ
يَا أَهْلَ وِهْرَانَ لِي فِي رَبْعِكُمْ قَمَرٌ * وَالـلَّـهُ عَظَّمَـهُ يَـا أَهْـلَ وِهْـرَانِ
فَـخَيْرُ وِهْرَانَ هُمْ أَصْحَابُ سَيِّدِنَا الـ * ـقُطْبِ التِّجَانِي وَأَصْحَابِي بِوِهْرَانِ
قَـلْـبِي يُحِبُّـهُمُ نَـفْسِي تـوَدُّهُـمُ * وَلاَ أَزَالُ أُحِـبُّ أَهْـلَ وِهْـرَان
مِنِّي الـسَّلاَمُ عَلَيْهِمْ مَا تَـحَرَّكَ لِي * قَـلْـبٌ بِـشَـوْقٍ لِأَحْبَابِي بِـوِهْرَانِ

توفي بموطنه بوهران على الساعة التاسعة من صباح يوم السبت 11 رمضان المعظم 1359 هـ- 13 أكتوبر 1940م. ودفن بروضة بودومة بالمدينة ذاتها. أنظر ترجمته في كتابنا: رسائل العلامة القاضي أحمد سكيرج 1: 16.

سؤاله عن وجوب الزكاة في الخرطال أو عدمها بما عنونته رفع الإشكال، في وجوب الزكاة في الخرطال[1]، وَقد ترجمت له في الرحلة الحبيبية الوهرانية المطبوعة بفاس ترجمة لطيفة.

وقد وجدت في انتظارنا بمدينة سيدي بلعباس حبيبنا الخاص، أحد الخواص، الذاكر الناسك، سيدي الصقال عبد السّلام، الذي نزلنا بمحله بعد انتقالنا من وهران، وتلقانا أهله بحفاوة وإكرام، وبالأخصّ أهْل داره الذين هم بمنزلة أولادنا، ولو لم يزد إحسانهم وصنيعهم على البر من أهلي حسبتهم أهْلي، وقد زاد بنا فرحا ولداه سيدي محمود وسيدي البشير وإخوته الأفاضل بنعودة وسيدي مصطفى حفظ الله الجميع

ثم سافرنا لوجدة صحبة الكاتب الأوحد سيدي أحمد الهواري، حيث وجدتُه بمحطة مدينة سيدي أبي العباس، وَبتنا عند باشاها المحترم السيد إبراهيم الحيحي، وأقمنا هناك يوم الأحد، واجتمعنا بكثير من الأحباب الذين لا زالوا على عهد المحبة من وقت توليتنا لخطة القضاء بها، الذين من جملتهم خليفة القاضي محل الولد البار سيدي محمّد بن عبد الواحد، ووكيل الغياب سلالة الفضل سيدي المصطفى بن الكايد، وصهريه، وغيرهم مع

[1] ـ رفع الإشكال عن وجوب الزكاة في الخرطال. كتيِّب لا يزيد عن صفحات قليلة، وهو من عداد مؤلفاته غير التامة، شرع في كتابته إبان زيارته لمدينة وهران عام 1329 هـ- 1911م. وكان الجانب الفقهي غالبا على اهتماماته إذ ذاك، بل على كتاباته أيضا. والمعروف عنه حينها أنه كان أستاذا بجامع القرويين، من الطبقة الثانية، يدرس بها علم الفقه، مع تخصص عجيب في علم الفرائض.

وحول موضوع زكاة الخرطال يقول المؤلف نفسه في كتابه تاج الرؤوس بالتفسح في نواحي سوس، وهو من عداد آخر مؤلفاته، جمعه بعد إفتائه في هذه النازلة بما يناهز العشرين سنة، قال:

وَهُنَا تَذَكَّرْتُ الَّذِي قَدْ قُلْتُ فِي * الخُرْطَالِ مِمَّا قُلْتُ فِي أَوْزَانِي
فَوُجُوبُهَا لاَ شَكَّ فِيهِ لَدَيَّ وَهْـ * ـوَ الَهُرْطُمَانُ أَرَاهُ بِالإِيقَانِ
وَيُقَالُ فِيهِ هُوَ الشقَالِيَةُ الَّتِي * هِيَ خَيْرُ نَوْعِ العَلْفِ لِلحَيَوَانِ
لاَ لاَ التِفَاتَ لِغَيْرِ هَذَا القَوْلِ عِـ * ـنْدَ مُرِيدٍ حَقٍّ جَاءَ عَنْ بُرْهَانِ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَهْوَ يَعْلَمُ صِدْقَ مَا * قَدْ قُلْتُهُ فِي وَاضِحِ التِّبْيَانِ

الترجمانين المبجلين سيدي علي بن رحال، وسيدي محمد عبروص زاد الله في معنى الجميع.

وبعد صلاة العشاء من ليلة الجمعة امتطينا دابة القطار إلى أن مرت بنا على فاس، وبها نزل الأديب الهواري لصلة رحمه بأهْله، ثم جَدّ القطار السير بنا إلى أن وصلنا للدار البيضاء وقت الزوال، وقد صادفنا ببابها الكبير العضو السّابق الذكر الأمين السيد محمّد بن جلون رئيس الغرفة التجارية بها، فأخذنا معَه لتناول الغداء لديه، وَأحسن في الإكرام بإركابنا على سيارته للمحطة للتوجه إلى سطات على القطار المار بها، فوصلنا إلى الأهْل قرب السّاعة الخامسة عشية ووجدناهم بخير.

وَحَطَّتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى * كَمَا قَرَّ عَيْناً بِالإِيَابِ المُسَافِرُ

وبعد وصولي لمحل إقامتي بسطات وصلني كتاب من جناب ذي الهمة العالية، والشيم الغالية، السيد لاغا بنعودة نجل باش لاغا الصحراوي، بلغه الله مقصوده، مصحوبا بنخبة تذكار، فقلت هذه الأبيات :

سَلُونِي أُخْبِرُكُمْ عَلَى مَنْ عَلاَ العُلَى * وقَـدْ زَادَ مِـنْ حُسْنَى تَوَاضُعِهِ عَـلاَ
فَـحَـقَّ لَـهُ كُـلُّ التَّهَانِي بِـمَـا لَـهُ * تَـيَـسَّرَ مِـمَّـا فَـاقَ فِـيـهِ ذَوِي الـعَـلاَ
أَلَـيْـسَ هُـوَ الـبَدْرُ الـمُنِيرُ ابْـنُ عَـوْدَةٍ * فَـأَمْسَتْ بِـهِ العَلْيَاءُ تَرْفُلُ فِـي الـحُلَى
تُبَاهِي بِـهِ العَلْيَاءُ فَـخْراً عَـلَى السِّوَى * وَتَـزْدَادُ حُـسْـنـاً فِـي سَـنَـاءٍ تـكـمـلا
فَـأَكْرِمْ بِـهِ لاَغَـا ابْـنَ بَاشَ لَغَى الرِّضَى * وَمَنْ صَارَ فِي الصَّحْرَاءِ صِيتٌ لَهُ غَلاَ
إِذَا قِـيـلَ مَـنْ تُـنْـمَى الـمَعَالِي بِـهَا لَـهُ * فَـلَـيْـسَ سِـوَاهُ عَـنْـهُ قُـدِّمَ فِـي الـمَلاَ[1]

[1] ـ الملا : بمعنى الملأ، وهو الجماعة وأشراف القوم وسراتهم

فَأَعْظِمْ بِهِ فَاللَّهُ عَظَّمَ خلْقَهُ * وَأَوْلاَهُ مِنْ إِحْسَانِهِ أَحْسَنَ الوَلاَ[1]
وَمَنْ كَانَ مِنْ نَسْلِ المُعَظَّمِ خَالِدٍ * مِنَ الآلِ آلِ البَيْتِ فِي النَّاسِ بُجِّلاَ
وَتَبْجِيلُهُ[2] فِي السِّرِّ وَالجَهْرِ وَاجِبٌ * عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ لِيَنْجُو مِنَ البَلاَ
لَقَدْ أَكْرَمَ المَوْلَى بَنِي خَالِدٍ بِمَا * تَصَرُّفُهُمْ فِي الكَائِنَاتِ بِهِ اجْتَلَى
وَلَمْ يَخْفَ مَا نَالُوهُ مِنْ سُؤْدَدٍ وَمِنْ * كَمَالٍ عَلاَ الأَعْلَى عَلَى كُلِّ مُعْتَلَى
سَأُثْنِي عَلَيْهِ مَا حَيِّيتُ ولَمْ يَزَلْ * عَلَيْهِ الثَّنَا مِمَّنْ لِأَمْدَاحِهِ تَلاَ
وَمَا كَانَ شُكْرِي وَهْوَ شُكْرٌ مُخلد * لِأَغْرَاضِ نَفْسٍ أَوْ يُعَدُّ سَبَهْلَلاَ[3]
بَلَى إِنَّ شُكْرِي عَنْ صَفَاءِ سَرِيرَةٍ[4] * وَإِخْلاَصِ وِدٍّ فِيهِ وَالآلِ مسْجَلاَ
فَإِنِّيَ قَدْ أَسْكَنْتُ فِي القَلْبِ حُبَّهُمْ * وَحُبِّيَ عِنْدِي فِيهِمُ قَدْ تَأَصَّلاَ
فَإِنِّيَ أَنْصَارِي[5] نَشَرْتُ لِوَاءَهُمْ * بِمَدْحٍ لَدَى كُلِّ الأَفَاضِلِ قَدْ حَلاَ
أُعَطِّرُ بِالأَمْدَاحِ فِيهِمْ مَجَالِسِي * وَأَتْرُكُهُ لِلْمَادِحِينَ مُسَلْسَلاَ[6]
فَيَرْوِيهِ عَنِّي كُلُّ مَنْ ضَاءَ صَدْرُهُ * بِنُورِ هُدًى يَرْوِيهِ عَنْهُ ذَوُو العَلاَ
فَلِلَّهِ مَا أَحْلَى الثَّنَاء عَلَى النَّبِي * وَأَهْلِ العَلاَ أَبْنَائِهِ بَيْنَ مَنْ عَلاَ
أَأَحْبَابَ قَلْبِي فَاعْذرُونِيَ فِيهِمُ * فَقَلْبِيَ فِيهِمْ بِالوِدَادِ قَدْ امْتَلاَ[7]
عَلَيْهِمْ مِنَ العَبْدِ الضَّعِيفِ سُكَيْرَجٍ * سَلاَمٌ بِعَرْفِ الطِّيبِ لِلكَوْنِ قَدْ مَلاَ
وَأُنْهِي لِمَحْبُوبِي ابْنَ عَوْدَةَ مِدْحَتِي * بِمَا تَحْسُنُ الذِّكْرَى بِهِ فِي ذَوِي العَلَى

---

[1] ـ الولا : بمعنى الولاء، وخففت للضرورة الشعرية

[2] ـ تبجيلَهُ : تعظيمه

[3] ـ سبهللا : بمعنى الرجل الفارغ يقال جاء سبهللا فارغا لا شيء معه

[4] ـ السريرة : ما يكتم ويسر، وجمعه سرائر

[5] ـ المعروف عن العلامة سكيرج أنه أنصاري النسب، من جهة الخزرج، وكثيرا ما كان يصرح بذلك في كتبه وتقييداته وخواتم رسائله، وقد توسعت في هذا الموضوع ضمن ترجمتنا له في الجزء الأول من كتابنا رسائل العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج

[6] ـ مسلسلا : بمعنى يتصل بعضه ببعض كأنه سلسلة

[7] ـ امتلا : بمعنى امتلأ، وخففت للضرورة الشعرية

وَإِنِّــي وَإِنْ قَـصَّرْتُ فِـي مَـدْحِهِ وَلَـمْ * أُطَـوِّلْ فَـإِنِّـيَ عَـنْـهُ لَــنْ أَتَـحَـوَّلاَ
وَأُدْلِـي لَـهُ بِـالعَجْزِ عَـمَّـا اسْتَحَقَّ مِنْ * ثَـنَـاءٍ عَـلَـى فَـضْـلٍ بِـهِ قَـدْ تَـكَـمَّلاَ
لِـيَحْيَى وَيَـحْيَي كُـلُّ مَـنْ يَنْتَمِي لَـهُ * وَفِي رَغَدِ العَيْشِ الهَنِي دَامَ فِي اعْتِلاَ

وَبعد فقد كان أكّد عليَّ محبنا الشريف السمي المولى أحمد بن الطالب الطاهري[1] حين كنت بفاس لأزور معه محبنا المحترم حليف الأدب القائد سيدي الحاج محمّد بوعشرين[2] فواعدته فذلك، غير أني أردت إنجاز الوعد، فقصدت محله بحومة درب طاقة من طالعة فاس، فقابلني بباب داره أحد خدامه المخازنية بما أكره، وعزمت على رفع الشكاية به إليه، فأنشأت هذه الأبيات ليعمل بمقتضاها في حق ذلك الحلف بما تقضي عليْه ونصها : [بياض]

---

[1] ـ أحمد بن الطالب الطاهري، من أعز أصدقاء المؤلف بمدينة فاس، ذكره في كتابه تاج الرؤوس، في التفسح بنواحي سوس، فقال في حقه :

وَلَـقِيتُ مَـحْبُوبِي الـشَّرِيفَ الطَّاهِرِي * ابْنَ الطَّالِبِ الأَسْمَى سَمِيِّي السَّانِي
مُـسْدِي الأَيَـادِي لِـي بِـغَيْرِ تَـبَجُّحٍ * مُـبْـدِي الـوِدَادِ بِصَـادِقِ الـوِجْدَانِ
نِـعْمَ الـمُحِبّ وَيَـالَـهُ مِـنْ فَـاضِـلٍ * فَـاقَ الـسِّوَى فِـي السَّادَةِ الأَعْـيَانِ
وَلَـقَـدْ دَعَـانِـي لِـلْـكَرَامَةِ عِـنْـدَهُ * وَلَـنِـعْـمَ مَـا مِـنْـهُ إِلَـيَّ دَعَـانِـي

[2] ـ محمد بن بوشعيب الأنصاري. فقيه قاض. من أعلام مدينة فاس. وبها كان مسقط رأسه عام 1300هـ - 1882م. أخذ العلم عن نخبة من علماء القرويين. كمحمد (فتحا) كنون. وعبد السلام الهواري. وأحمد بن الخياط. وأحمد بن الجيلالي الأمغاري. وعبد المالك العلوي الضرير. ومحمد (فتحا) القادري وآخرين.
له مؤلفات عديدة في الفقه والحديث والمنطق والكلام. ومعظمها شروح وحواش. وقد طبع بعضها. منها : الأحكام النهائية الزيادية. وهي الأحكام التي كان أصدرها إبان فترة قضائه بقبيلة الزيايدة. وحاشية على شرح بناني للسلم في المنطف. والحظ في العبادة في الرد على من ألحد في كلمتي الشهادة. وهو مدرس بارع. زاول هذه المهمة الشريفة مدة طويلة من عمره. سواء بالقرويين أو بغيرها من مساجد ومدارس مدينة فاس.
عين قاضيا بقبيلة زعير عام 1335هـ - 1916م. ثم بعد ذلك بناحية الزيايدة وأولاد سعيد من قبيلة الشاوية. توفي بمدينة سطات (حيث كان يقيم بها إبان قضائه بناحية أولاد سعيد) وذلك يوم الخميس 12 جمادى الثانية عام 1364هـ - 1944م. ودفن قبالة باب الولي الصالح سيدي الغنيمي. أنظر ترجمته في سل النصال(موسوعة أعلام المغرب) 9 : 3192. الأعلام للزركلي 6 : 159. معلمة المغرب 6 : 1798. معجم المطبوعات المغربية 51.

وقد نسجت على هذه العروض من عجز والكامل مرثية في محبنا العلامة أبي العلا القاضي سيدي إدريس الورزازي[1] قاضي محكمة المواسين بالحاضرة المراكشية المتوفّي في هذه الأيام الأخيرة ونصها :

الـمَـوْتُ لِـلأَرْوَاحِ خَـاطِـفْ * وَيَـكِيلُ كَيْلَ غَـوِي مُجَازِفْ
والـنَّـاس فِـي غَـفَـلاَتِـهِمْ * عَـنْـهُ ومِـنْـهُمْ غَـيْـرُ خَـائِفْ
لاَ فَـرْقَ بَـيْـنَ مُـشَـرَّفٍ * يَـسْطُو عَـلَيْـهِ وَغَـيْـرِ شَـارِفْ
فَـيُـصِـيبَـهُـمْ بِـمَـصَـائِـبٍ * تَـتْـرَى وَعَـنْـهُمْ غَـيْـرُ عَـاطِفْ
يَـا لَـيْـتَ شِـعْـرِي وَالـرَّدَى * مِـنْ جُـنْـدِهِ جـرْحُ الـعَـوَاطِفْ
مَـنْ يَـنْـجُ مِـنْـهُ مِـنَ الـوَرَى * وَوَرَاءَهُـمْ كُـلُّ الـمَـتَالِفْ
أَتَـرَاهُ يُـرْثِـي مَـرَّةً * لِـمُـخَـالِـفٍ أَوْ لِـلْـمُـحَـالِفْ
لِـلَّـهِ مَـا هُـوَ فَـاعِـلٌ * بِـالنَّاسِ فِـي كُـلِّ الـمَوَاقِفْ
سِـيَّانَ مَـنْ جَـهِـلُوا لَـدَيْـ * ـهِ وَمَـنْ تَـحَـلَّوْا بِـالـمَـعَـارِفْ
آهٍ عَـلَـى مَـا مِـنْـهُـمُ * قَـدْ لُـفَّ فِـي خَـيْـرِ اللَّفَائِفْ
فَـلَـقَـدْ فَـقَـدْنَا مَـنْ لَـهُ * كُـلُّ امْـرِئٍ بِـاللُّطْفِ وَاصِـفْ
وَبِـمَـدْحِـهِ الـذِّكْـرُ الـجَـمِـيـ * ـلُ بِـأَكْـمَـلِ الأَخْـلاَقِ هَـاتِـفْ
شَمْسُ الهُدَى القَاضِي الرِّضَى * إِدْرِيـسُ مُـجْـتَـمَـعُ الـلَّطَائِفْ
وَرْزَازِيُ الـنَّـسَـبِ الَّـذِي * فِـي الفَضْلِ قَدْ فَـاقَ الطَّوَائِفْ
إِنَّـا نُـعَـزِّي أَهْـلَـهُ * أَهْـلَ الـمَـكَـارِمِ وَالـمَـتَـاحِفْ
مَـا مَـاتَ مَـنْ هُـوَ مِـثْـلُـهُ * فِـي الفَضْلِ قَدْ تَـرَكُوا خَلاَئِفْ

---

[1] ـ إدريس بن المختار بن عمر الورزازي، من أعلام مراكش، وبها كان مسقط رأسه عام 1297هـ ـ 1878م، أخذ العلم عن جماعة من كبار علماء جامعة ابن يوسف، وبها تخرج، فأسندت له عقب ذلك مناصب هامة، منها خطة القضاء بمدينة سطات ونواحيها، ثم الخطة نفسها بمدينة قلعة السراغنة ونواحيها، ثم بمراكش بالمحكمة اليوسفية، توفي يوم الأحد 29 ذي القعدة الحرام عام 1359هـ ـ 29 دجنبر 1940م أنظر ترجمته في معلمة المغرب 22 : 7554

هُـمْ فِـي الـمَعَـالِي أَشْـمُسٌ * بَـزَغَـتْ بِـنُـورٍ غَـيْـرِ خَـاسِفْ
فَـالـلَّـهُ يَـرْزُقُـهُـمْ جَـمِـيـ * ـلَ الصَّبْرِ عَـنْهُ فِي العَوَاصِفْ
قَـــدْ كَـــانَ جُـنَّـتَـهُـمْ وَجَـ * ـنَّـتَهُمْ وَهُـمْ أَهْـلُ الـوَظَائِفْ
وَالـــلَّـــهُ يَـرْحَـمُـهُ فَـكَـمْ * دَمْـعٌ عَـلَـى عُـلْيَاهُ وَاكِـفْ

ثم ورد عليّ كتاب من محبنا الشّريف، الغطريف الأديب، سيدنا محمد المهدي بن العارف أبي الفيض سيدي محمد[1] بن مجيزنا المحدث الشهير سيدي عبد الكبير الكتاني رضي الله عنه، مخبراً بما كان متشوفا لهُ من التعريج على محل إقامته بسلا في رجوعي من الجزائر، وأنه كان في ضيافة الله من أول شهر رمضان إلى نصف شوال، وَمؤكدا عليّ بقضاء غرض أكيد عرض لبعض أحبائه، فكتبت له هذه الأبيات :

بَـلِّغُوا لِـلحَبِيبِ مِـنِّي سَـلاَمِي * بِـكَـمَـالِ الإِجْـــلاَلِ وَالاحْـتِـرَامِ
وَإِذَا مَـــا رَدَّ الـسَّـــلاَمَ عَـلَـيْـكُمْ * فَـاذْكُـرُوا اسْمِـي وَحَـالَتِي وَهُيَامِي
وَإِذَا مَـاصَـغَـى إِلَـيْـكُمْ فَـزِيـدُوا * بِـاحْـتِـرَاسٍ مِـــنْ سَـائِـرِ الـلُّـوَّامِ
رُبَّـمَـا يَـذْكُـرُونَ عَــنِّـي أُمُـــوراً * مُـفْـتَـرَاةً تُـفْـضِـي بِــهِ لِاتِّـهَـامِي
غَــيْـرَ أَنِّـــي عَـلَـى يَـقِـينٍ بِـأَنِّـي * فِــي هَــوَاهُ لَـمْ يَـحْـتَـفِلْ بِـمَلاَمِي
وَهْوَ يَدْرِي أَنِّي عَلَى صِدْقِ عَهْدِي * لَـــمْ أَزَلْ عِـــنْـدَهُ مَـــدَا أَيَّـــامِـي

---

[1] ـ محمد المهدي بن العلامة الشيخ سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني، من أعلام الأسرة الكتانية، ولد بفاس عام 1307هـ ـ 1890م، أخذ العلم عن جماعة من مشاهير علماء القرويين، لعل من أبرزهم والده العلامة المحدث سيدي محمد الكتاني، وجده الشيخ العلامة سيدي عبد الكبير، له مؤلفات كثيرة منها : كتاب بيني وبين الرافعي [يعني العلامة فيلسوف المغرب في عصره محمد الرافعي الجديدي التجاني] والجوهر الثمين، في تراجم أمهات المومنين، وتقييد في أصل مواسم الصالحين، ووفيات القرن الرابع عشر الهجري، ومؤلف في كون الطريقة الكتانية لا تعترف إلا بأتباعها الناهجين نهج الكتاب والسنة، وبراءتها من المتبعين لأهوائهم وشهواتهم والمتكلين على الفضائل. توفي بمسكنه بمدينة سلا زوال يوم الخميس 21 صفر عام 1379هـ ـ 26 غشت 1959م، ودفن بها بالزاوية الكتانية، أنظر ترجمته في معلمة المغرب 20 : 6768 ـ 6769

وَلَـو أَنَّ الـوُشَاةَ مَـا قَصَّرُوا فِـي * مَــا أَطَـالُـوا بِــهِ مَـعَ الإِقْـسَـامِ
وَيَمِيـنُ الـكَذَّابِ مِنْهُمْ غَـمُوسٌ[1] * غَـيْـرُ مَـقْـبُـولَـةٍ لَـــدَا الـحُـكَّامِ
يَـا رَعَـى اللَّهُ حَاكِمِي فِي هَوَاهُ * لَــمْ يَـزُرْنِـي وَلَــوْ بِـطَيْفِ مَـنَامِ
قِـيلَ مَـنْ يَـذْكُرُ الـحَبِيبِ يَـرَاهُ * وَأَنَــا مَــا أَرَاهُ فِــي أَحْـلاَمِـي
لَــمْ أَزَلْ ذَاكِــراً لَــهُ كُــلَّ وَقْــتٍ * وَالـكَـرَى قَـدْ فَـقَـدْتُـهُ بِسِقَامِي
قَـدْ سَلاَ فِـي سَلاَ وَقَلْبِيَ عَنْهُ * مَــا سَــلاَ فَـاسْـأَلُـوهُ رَدَّ سَـلاَمِـي
إِنَّـنِـي فِــي الآلِ الـكِرَامِ مُـحِبٌّ * وَهْـوَ مِنْـهُمْ عَـلاَ لِأَعْـلَـى مَـقَامِ
وَهُـوَ الـمَهْدِيُ الـحَقّيقِي وَلَـكِنْ * مَــا ادَّعَــى مَـهْـدَوِيَّـةَ الإِسْـلاَمِ
فَسَلُوهُ هَـلْ عِـنْدَهُ بَعْضُ مَا عِنْـ * ـدِي مِـنَ الـحُبِّ فِيهِ بِاسْتِسْلاَمِي
يَا رَعَى اللَّهُ مَنْ عَلَى العَهْدِ يَبْقَى * مِـثْـلَـهُ رَاعِـيـاً لِأَهْــلِ الـذِّمَـامِ
إِنَّـهُ لَـمْ يَـزَلْ عَـلَى العَـهْدِ حَتَّى * خَـصَّنِي فِــي الـخُدَّامِ بِـالإِكْرَامِ
وَأَنَــا لِــلآلِ الــكِـرَامِ خَـدِيـمُ * وَلِــهَــذَا يَـعُـدُّنِي فِــي الـكِـرَامِ
لِــمَ لاَ وَالـمُـحِبُّ لِـلقَوْمِ مِـنْهُمْ * طِبْقَ مَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ السَّامِي[2]

---

[1] ـ الغموس : اليمين الغموس، أي الكاذبة، تغمس صاحبها في الإثم، وفي الحديث : اليمين الغموس تذر الديار بلاقع

[2] ـ إشارة للحديث الذي رواه الإمام البخاري عن أبي موسى الأشعري قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم، الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، قال : المرء مع من أحب. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الأدب) باب علامة الحب في الله رقم 6025، رقم 6026، رقم 6027. صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآدب) باب المرء مع من أحب رقم 6669،

ثم وردت علي بعد ذلك رسالة من أخينا باشا مدينة سلا السيد محمد الصبيحي[1]، فأجبته بقولي

عَلَيَّ مِنْكَ انْبِلاَجُ الفَجْرِ قَدْ بَزَغَتْ * شُمُوسُهُ فَظَفِرْتُ بِالمَسَرَّاتِ
فَكَانَ مِنْهَا انْبِلاَجُ الفَجْرِ عَنْ فَلَقٍ * أَنْوَارُهُ أَشْرَقَتْ تِلْكَ الدُّجُنَّاتِ
وَالقَوْسُ قَدْ مُكِّنَتْ بِكَفِّ مُتْقِنِهَا * يُصْمِي بِهَا فِي المَدَى قَلْبَ الجَهَالاَتِ
حَتَّى انْجَلَى الجَهْلُ عَنْ أَفْكَارِ صَاحِبِهَا * بِمَا اسْتَبَانَ لَهُ فِي الحَالِ وَالآتِي
لِلَّهِ دَرُّكَ يَا بَاشَا سَلاَ فَلَقَدْ * أَصْبَحْتَ فِي النَّاسِ مُجْلِي المُدْلَهِمَّاتِ
تُحْيِّي القُلُوب بِمَا تُبْدِيهِ مِنْ رشدٍ * حَتَّى وُصِفْتَ بِكَشَّافِ المُهِمَّاتِ

---

[1] ـ محمد بن الطيب بن محمد الصبيحي. فقيه أديب. من مواليد مدينة سلا عام 1299هـ - 1882م. أخذ العلم عن جماعة من علماء بلده. كالعلامة أحمد الجريري. وعلال الثغراوي. وعلي بن محمد (فتحا) عواد السلاوي. ومحمد بن إدريس المنصوري وآخرين. ثم شد الرحلة بعد ذلك إلى العاصمة (فاس) حيث تتلمذ بها لثلة من فقهاء القرويين. من أضراب محمد (فتحا) كنون. وأحمد ابن الخياط الزكاري. ومحمد (فتحا) بن قاسم القادري. وخليل الخالدي وسواهم .

ولدى تخرجه أسندت له باشوية مدبنة سلا عام 1322هـ. وهي الوظيفة التي زاولها على مدى 45 سنة. إلى أن أعفي منها بتاريخ 8 جمادى الثانية 1376هـ - 10 يناير 1957م.

وله مؤلفات وتقاييد وأشعار نفيسة. من ذلك كتابه الذي يحمل عنوان : انبلاج الفجر. عن المسائل العشر. ومن شعره قوله في مطلع قصيدة في مدح السلطان المولى يوسف :

سِرُّ الجَلاَلَةِ أَمْ سَنَاءُ السُّؤْدَدِ * أَمْ مَوْلِدُ المُخْتَارِ مُنْجِزُ مَوْعِدِي
حَيْثُ الحَبِيبَةُ فَاحَ طِيبُ وِصَالِهَا * مُتَأَرِّجاً بِفَضَاءِ هَذَا المَسْجِدِ
حَيْثُ المَهَابَةُ وَالفَخَامَةُ وَالعَلَى * حَيْثُ البَهَا فِي حُلَّةٍ مِنْ عَسْجَدِ
حَيْثُ المَدَائِحُ وَالقَرَائِحُ تُجْتَلَى * كَقَلاَئِدٍ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ
تَشْدُو بِهَا نِعْمَ النَّشِيدِ كَأَنَّهَا * نغمُ المَثَانِي أَوْ أَغَانِي معْبَدِ

توفي رحمه الله بموطنه (سلا) يوم الأحد 10 صفر الخير عام 1389 هـ - 28 أبريل 1969م. أنظر ترجمته في إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين 190 - 194. اليمن الوافر الوفي في امتداح الجناب المولوي اليوسفي. ج 1 ص 121 - 123 موسوعة أعلام المغرب لحجي 9 : 3411 - 3413.

وَيَا صَبِيحِي صَبِيحَ الوَجْهِ أَيْنَ غَدَا * يَـزْدَادُ حُسْنـاً وَيَـرْقَى فِـي الـمَقَامَاتِ
عَلَيَّ مِنْكَ انْبِلاَجُ الفَجْرِ قَدْ بَزَغَتْ * شُـمُـوسُـهُ فَـظَـفِـرْتُ بِـالـمَـسَـرَّاتِ
طَـالَـعْتُهُ فَـرَأَيْـتُ الـحَـقَّ مُـتَّضِـحاً * بِـــهِ لِـطَـالِـبِـهِ بِـلاَ مُـعَـانَـاةِ
تِـلْكَ الـمَسَائِلُ عَشْرٌ مَـا سِـوَاكَ لَـهَا * كُـفْـؤٌ يُـجَـاوِبُ عَـنْـهَـا لِـلْـهِـدَايَاتِ
وَلَـمْ أُغَـالِي إِذَا مَـا قُـلْتُ أَنَّـكَ قَـدْ * أَصْبَحْتَ فِـي العَصْرِ قُطْباً لِلوِلَايَاتِ
وَكُـنْتَ فِيهِا إِلَـى ظِـلِّ الـخُمُولِ بِمَا * بِـهِ تَظَاهَرْتَ فِـي فَصْلِ الـحُكُومَاتِ
صُـوفِـي كَـبِيرٌ وَلَـكِـنْ فِـي مَظَاهِرِهِ * بَـاشَـا شَـهِـيرٌ عَـلاَ عَـلَى المِنَصَّاتِ
لِيَعْجَبِ الأَغْـنِيَا وَلْـيَعْجَبِ الـفُقَرَا * بِـمَـا بِـهِ قَـدْ تَحَلَّى فِـي الـبِدَايَاتِ
وَاسْتَصْحَبَ الرُّشْدَ فِي طَرِيقِ مَعْرِفَةٍ * بِـهَـا غَــدَا سَـائِـراً إِلَــى الـنِّـهَايَاتِ
فَـالـلَّـهَ أَسْــأَلُ أَنْ يُـحِـيـطَ جَـانِـبَـهِ * بِـسُـورِ حِـفْـظٍ سَلِيمِ النَّفْسِ وَالـذَّاتِ
حَـتَّـى يُـفِـيدَ الــوَرَى بِـمَـا يُحَصِّلُهُ * مِـنْ كُـلِّ عِـلْمٍ بِـهِ يَعْنِي الـضَّلاَلاَتِ
فَـالعِلْمُ مِـمَّنْ بِـهِ فِـي النَّـاسِ قَدْ عَـمِلُوا * يَـهْـدِيـهِـمُ لِـلـرُّقِـيِّ وَالـكَـمَـالاَتِ

ثم أنشأتُ قصيدة بعد تحرير مسامرتي التي اقترح عليّ إلقاءها بالإذاعة جناب العاقل المحترم، المستشار الثاني موسيو لومير، مدير الأحباس والإذاعة، أنشأتها في الثناء على الحضرة المحمّدية السلطانية الشريفة[1] لأنشدها بين يديه، وإلى الآن لم أجتمع بعد اجتماعاً خصوصياً، ونصها مخاطبا له :

---

[1] ـ السلطان مولانا محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن العلوي، ملك المملكة المغربية، ولد بفاس عام 1329هـ، وبها وبالرباط تلقى تكوينه العلمي، وبويع له بعد وفاة والده سنة 1346هـ، وله رحمه الله إنجازات كبيرة في حقل التنمية الوطنية بالمغرب، ونظرا لتشبثه بمطالب الحرية والإستقلال لبلده أقدم الإستعمار الفرنسي على نفيه صحبة عائلته لجزيرة مدغشقر عام 1372هـ، وبعد ذلك انطلقت بربوع المملكة المغربية ثورة شعبية عارمة أسفرت على إجبار الإستعمار الفرنسي بإعادة السلطان سيدي محمد الخامس من منفاه إلى عرشه، ومنح بلاد المغرب استقلالها سنة 1375هـ-1956م، وتوفي الملك سيدي محمد الخامس عام 1380هـ-1961م أنظر ترجمته في تاريخ المغرب لمحمد بن عبد السلام بن عبود ج 2 ص 146-161-192، وفي الأعلام للزركلي ج 7 ص 158.

بِحُبِّكَ قَدْ أَصْبَحْتُ غَيْرَ مُفَنَّدِ * لِأَنَّهُ مَشْهُورٌ بِحُبِّ مُحَمَّدِ
وَفِي آلِهِ يَزْدَادُ حُبِّي ومَا أَنَا * بِحَبْلٍ سِوَى حُبِّي لَهُمْ بِمُقَيَّدِ
وَخُضْتُ بِحَارَ الحُبِّ فِيهِمْ فَلَمْ أَجِدْ * مَثِيلَهُمُ فِي النَّاسِ يِأْخُذُ بِاليَدِ
هُمْ سَادَةُ السَّادَاتِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ * لَهُمْ قَدْ عَنَا بَيْنَ الوَرَى كُلُّ سَيِّدِ
إِذَا غَيْرُهُمْ بَاهَى بِمَا نَالَ مِنْ عُلَى * فَإِنَّ عَلاَهُمْ قَدْ حَوَى كُلَّ سُؤْدَدِ
تُبَاهِي بِهِمْ كُلَّ العُلَى وَعَلاَؤُهُمْ * يَزِيدُ عَلاَءً فِي كَمَالٍ مُمَجَّدِ
أَمَوْلاَيَ يَا خَيْرَ المُلُوكِ مُحَمَّدٍ * وَمَنْ هُوَ لِلإِرْشَادِ خَيْرُ مُجَدِّدِ
أَشَدْتَ بِهَذَا القُطْرِ أَعَلَى مَدَارِسٍ * لِعِلْمٍ بِهِ قَدْ كُنْتَ خَيْرَ مُشَيِّدِ
أَمَوْلاَيَ يَا بْنَ الأَكْرَمِينَ أَبًا وَمَنْ * تَحَقَّقَ فِيهِمْ إِرْثُ سِرٍّ مُحَمَّدِ
سُكَيْرِجُ قَدْ وَافَى لِفَضْلِكَ شَاكِراً * وَيُثْنِي عَلَى إِحْسَانِكَ المُتَجَدِّدِ
تَعَوَّدَ مِنْ مَوْلاَهُ وَالِدِكَ الرِّضَى[1] * وَمِنْ عَمِّكَ المَحْفُوظِ[2] خَيْرَ تَوَدُّدِ
هُمَا قَمَرَانِ أَشْرَقَا سُبُلَ الهُدَى * وَقَدْ شَاهَدَا فِي المُلْكِ أَعْظَمَ مَشْهَدِ
وَأَنْتَ الَّذِي أَبْقَيْتَ لِلمُلْكِ رَوْنَقاً * عَلَيْهِ رِوَاقُ الأَمْنِ فِي اليَوْمِ وَالغَدِ
وَقُمْتَ عَلَى سَاقِ اجْتِهَادٍ مُوَفَّقاً * إِلَى العَمَلِ السَّامِي بِرَأْيٍ مُسَدَّدِ
وَحَقَّقَ فِيكَ الحَقُّ آمَالَنَا الَّتِي * نَرَى ضِمْنَهَا مَا نِلْتَ مِنْ كُلِّ مَقْصِدِ
فَمِنْهَا انْتِشَارُ العِلْمِ فِي قُطْرِكَ الَّذِي * بِوَجْهِكَ أَضْحَى فِي السَّنَا المُتَوَقِّدِ
وَمِنْهَا انْتِصَابُ المُسْتَحِقِّ بِرُتْبَةٍ * بِهَا يَرْتَقِي فِي المَجْدِ غَيْرَ مُصَفَّدِ
وَمِنْهَا عُمُومُ النَّفْعِ مِنْكَ عَلَى السَّوَا * لِطُلاَّبِهِ مِمَّنْ بِهَدْيِكَ يَقْتَدِي
وَمِنْهَا نُهُوضُ الشَّعْبِ مِنْ بَعْدِ رَقْدَةٍ * بِهَا كَانَ مَهْضُومَ الجَنَابِ المُشَيَّدِ

---

[1] ـ إشارة للسلطان المولى يوسف بن الحسن الأول بن محمد العلوي، ولد بمدينة مكناس سنة 1297هـ وبويع له بالسلطنة سنة 1330هـ - 1912م، وهو أول من نقل البلاط السلطاني من فاس إلى الرباط، توفي رحمه الله بفاس عام 1346هـ - 1927م، وقد قيلت في حقه قصائد وأشعار رائعة فائقة، جمعها العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان في مصنف سماه : اليمن الوافر الوفي، بمديح الجناب اليوسفي، أنظر ترجمته في فواصل الجمان لمحمد غريط ص 141، ودروس التاريخ المغربي، للجراري ج 5 ص 269-278، والأعلام، للزركلي ج 8 ص 226.

[2] ـ إشارة لسلطان الأسبق المَولى عبد الحفيظ

وَمِنْـهَـا انْـفِـتَـاحُ الـعَـيْـنِ بَـعْـدَ انْـطِـبَـاقِـهَـا * وَكُنْتَ لَهَا تُجْلِي القَذَا فِي الهَوَى الرَّدِي

وَمِنْهَا انْتِصَارُ الحَقِّ بِالمَظْهَرِ الَّذِي * بِـهِ انْتَصَرَ الدِّينُ الحَنِيفِي المُحَمَّدِي

وَمِنْـهَـا وَمِـنْـهَـا كُــلُّ خَـيْـرٍ مُـؤَمَّـلٍ * يَـعُـمُّ رَعَـايَـاكَ الَّـتِـي بِـكَ تَـهْـتَدِي

إِلَــى مَــا يَـشَـاءُ الـلَّـهُ مِـنْـكَ نُـرِيـدُهُ * بِـعَـافِـيَـةٍ فِـيـهَـا دَوَامُ تَـجَـدُّدِ

وَيَـوْماً بِــهِ أَحْـرَزْتَ مُـلْـكاً مُـخَـلَّداً * أَقَـمْـنَـاهُ فِـيـنَـا خَـيْـرَ عِـيـدٍ مُـخَـلَّدِ

بِـهِ ابْـتَـهَـجَ الـعَـصْـرُ الـجَدِيدُ بِقُطْرِنَا * لَـدَى كُـلِّ عَـامٍ فِـي مَطَالِعِ أَسْعُدِ

وَأَضْحَى بِكَ الأَضْحَى سَعِيدًا مُبَارَكاً * بِــهِ لَــكَ إِنْـهَـاءُ الـهَـنَـاءِ الـمُـجَدَّدِ

فَــلاَ زِلْــتَ يَــا خَـيْـرَ الـمُلُوكِ مُتَوَّجاً * بِـتَـاجِ جَـلاَلٍ فِـي كَـمَـالٍ مُـسَرْمَدِي

وَأَشْـبَـالُـكَ الـمَـيْـمُـون طَـالِـعُـهُـمْ بِـهِـمْ * تَـحُـوطُ عِـنَـايَـةٌ غَـدَتْ فِـي تَـجَـدُّدِ

إِلَــى أَنْ تَـرَى فِـيـهِـمْ أَمَـانِـيَـكَ الَّـتِـي * بِـهَـا فِـي أَمَـانٍ أَحْـرَزُوا كُـلَّ مَـقْـصِـدِ